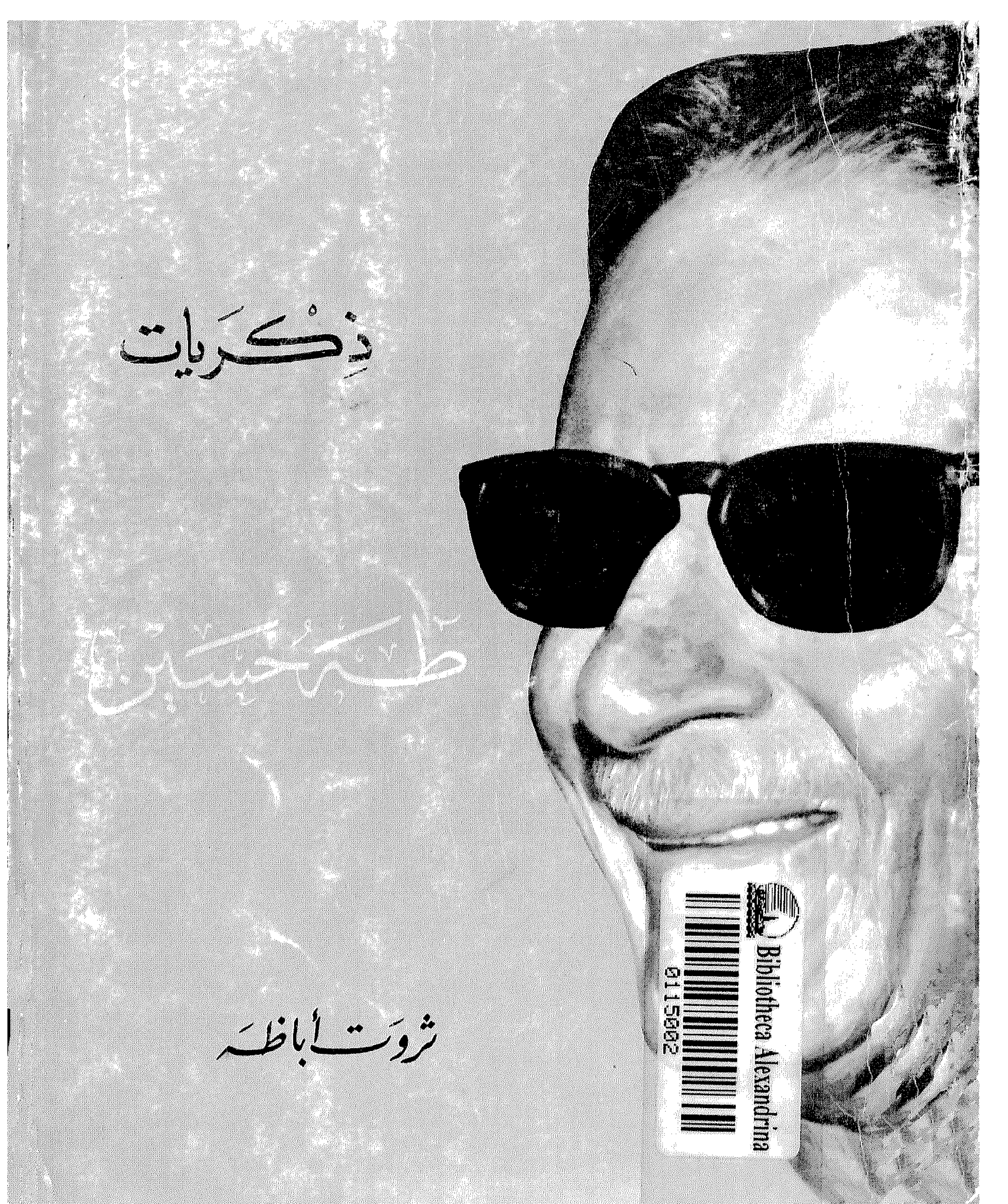


ذكريات طه حسين

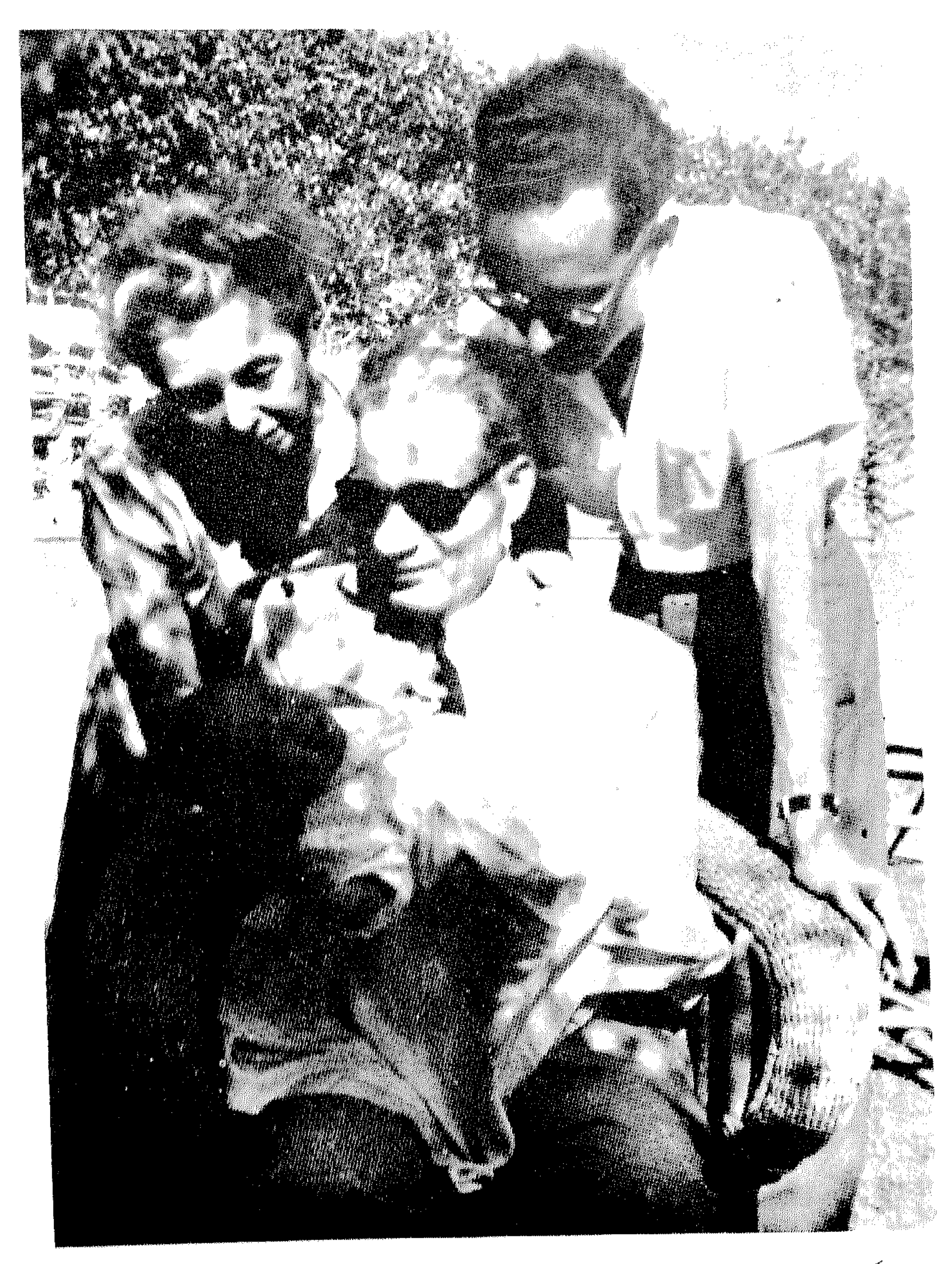
ثروت أباظة

دار الكتاب اللبناني - بيروت


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



ترى هل فكر يوماً ان صورته ستنشر كوالد طه حسين



الدكتور طه حسين وحرمه وولده مؤنس مع كريمة مؤنس ليلى ـ القاهرة ١٩٥٧



طه حسين، وزير المعارف، في زيارة رسمية لليونان ١٩٥٠



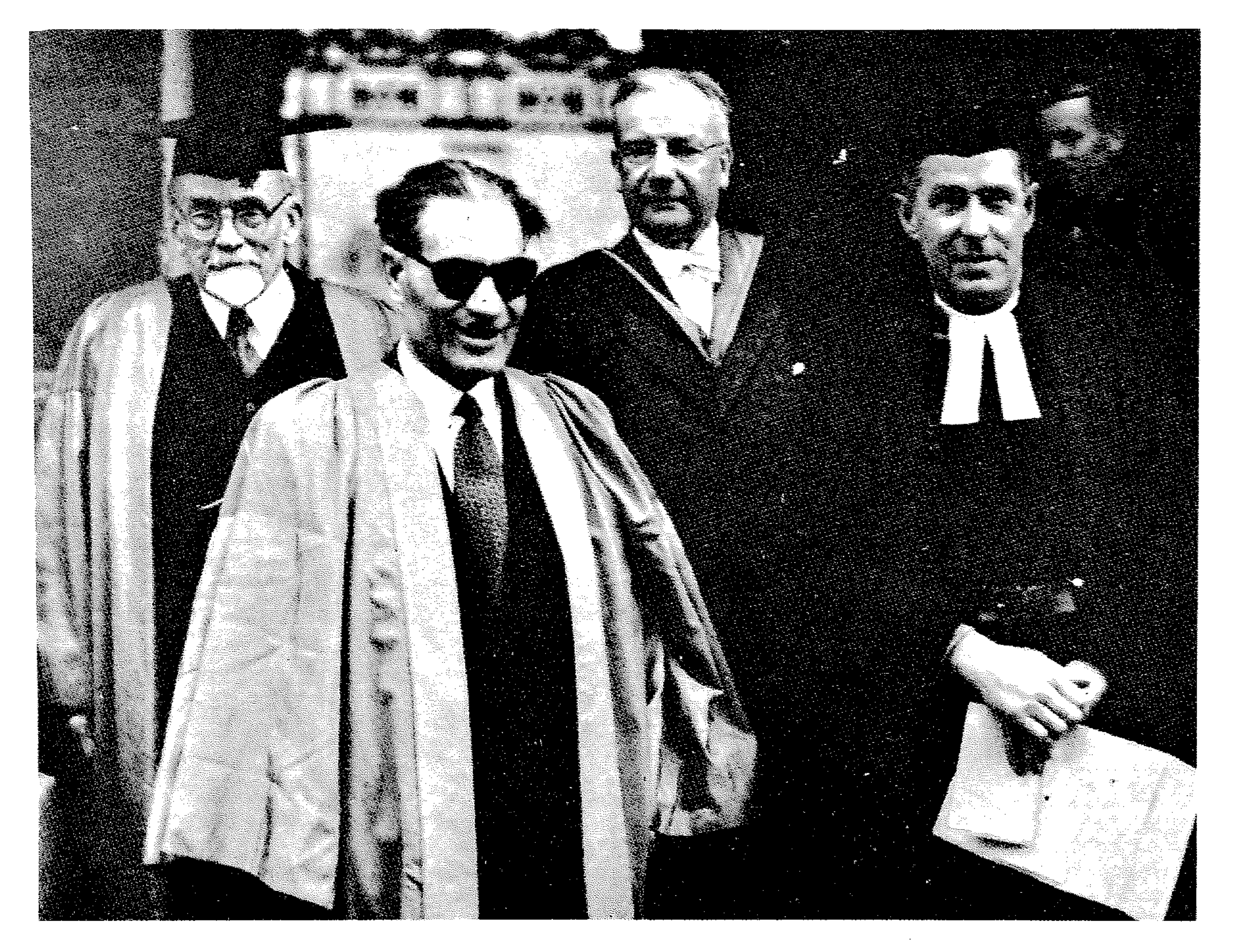
في روما ـ ديسمبر ١٩٥٠



في حفل زواج ابنته امينة والدكتور محمد حسن الزيات مع مصطفى النحاس باشا واحمد لطفي السيد باشا والعروسين يونيه ١٩٤٨



مع زوجته ونجله في اجازة



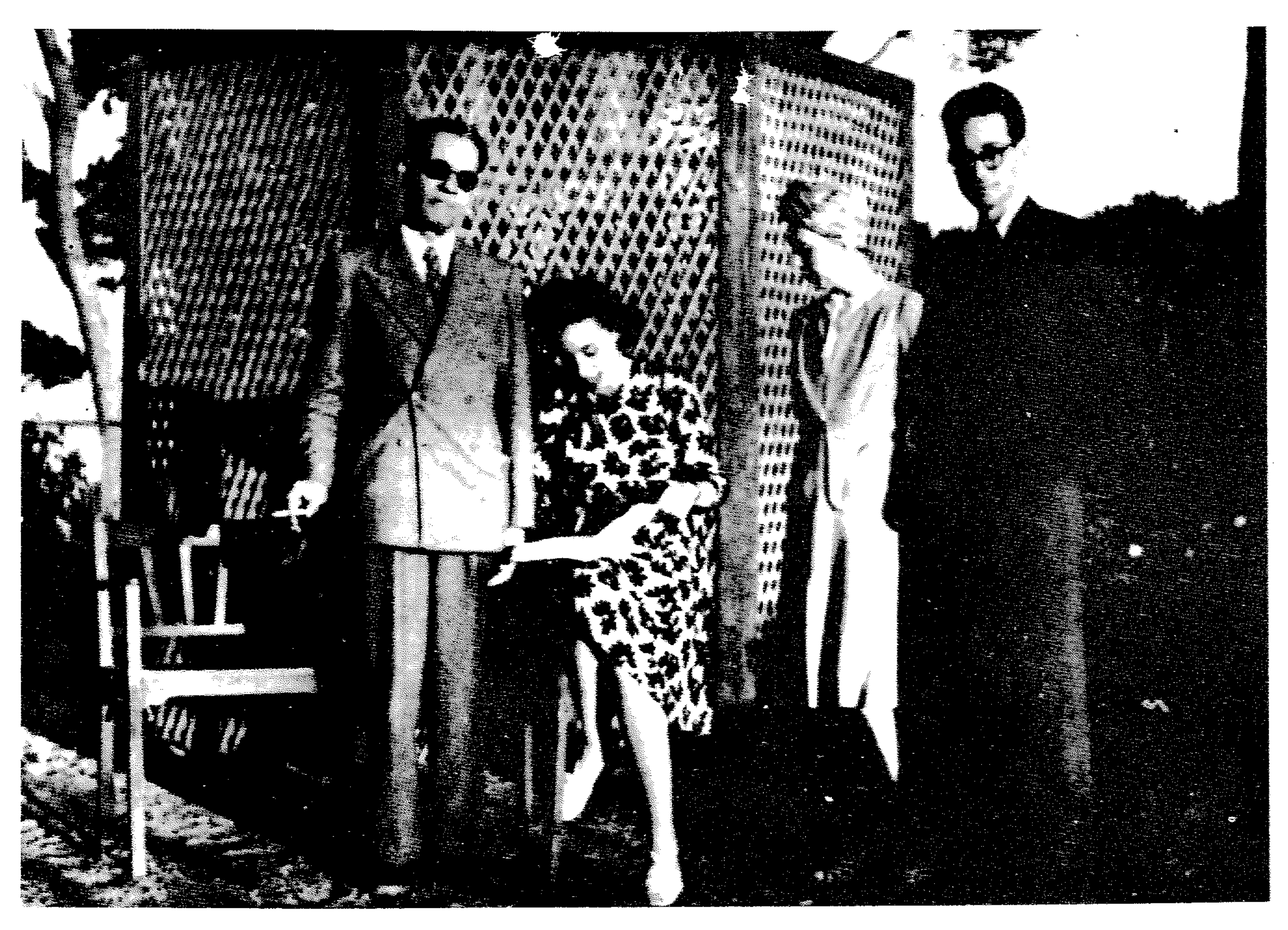
جامعة اكسفورد تمنحه الدكتوراه الفخرية عام ١٩٥٠



طه حسين ... وحامد العلايلي والد زوجة مؤنس « ليلى » في حفل زواج مؤنس يونيه (١٩٥٥)



في زيارة رسمية لاسبانيا مع وزير المعارف الاسبانية (مدريد ١٩٥٠)



من اليمين : مؤنس طه حسين، مدام طه حسين، امينة طه حسين ، الدكتور طه حسين في بيت مري لبنان صيف ١٩٤٣



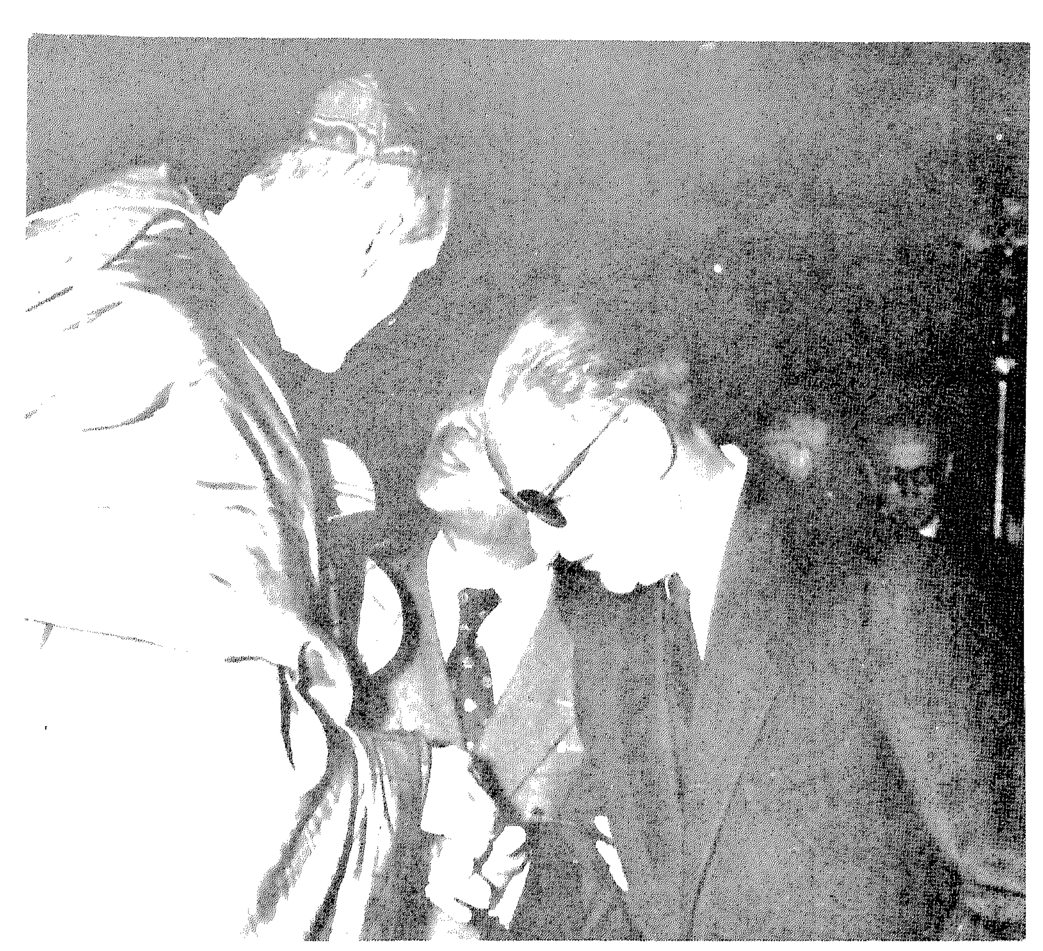
الدكتوراه الفخرية من جامعة روما (ايطاليا) عام ١٩٥٠



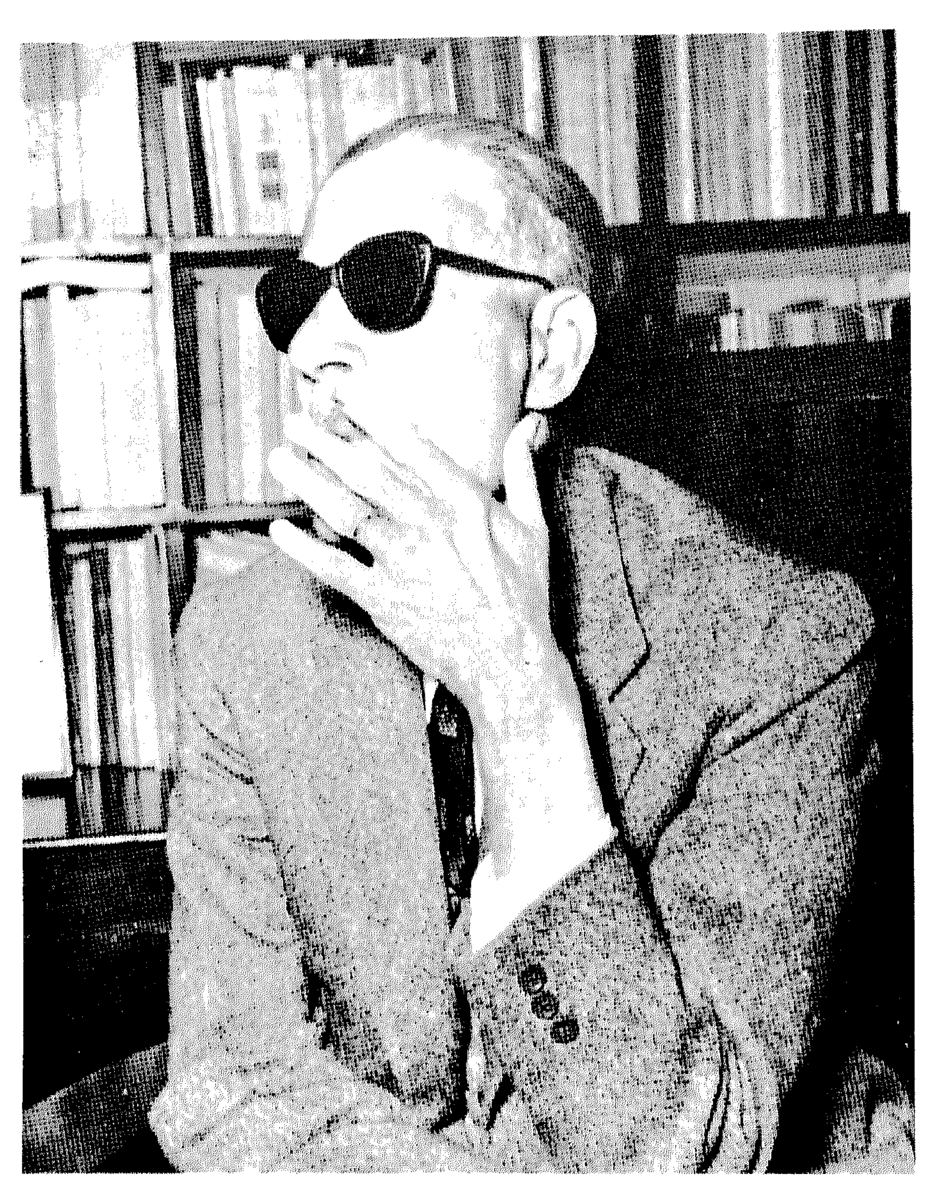
الدكتور طه حسين ومدام هيلين كيلر ... اثنان استقبلا الحياة دون ان يريا الحياة



في رحلة ...



في ايطاليا ـ فلورنسة ١٩٥٦



تفكير ... ومتعة



مع حفيده « حسن الزيات » الاسكندرية عام ١٩٥٠


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



طه حسين العائد

ذكريات

بقلم
ثروت أباظة

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
برقياً : كتالبان - بيروت
ص.ب : ٣١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى — ١٩٧٥

— ١ —

كنا في بيت أبي نتنفس الادب مع الهواء فأنا لا أذكر منذ متى سمعت اسم طه حسين ولكن الذي اذكره في ثقة أن اسمه وصل الى اذني محفوفا بالاجلال والاكبار منذ وصل فقد كان أبي — رحمه الله — يعجب به أشد الاعجاب على رغم الخصومة السياسية بينهما ولكن أبي كان من هؤلاء القلة النادرة التي تستطيع أن تضع الرجال في اماكنهم الصحيحة العادلة دون نظر الى خصومة او صداقة .

فالدكتور طه مثلا هاجم الاسرة الاباظية في يوم من الايام حين نقد شعر حافظ ابراهيم فذكر ان قصائده في مديح الاباظية مثل مديحه لملكة الانجليز ، وقد رد ابي على هجومه غاضبا ان يشبهنا الدكتور طه بالانجليز .

وقد جاءت الخصومة السياسية حين انضم الدكتور طه الى الوفد بعد ان كان من عمد جريدة السياسة التي كان يصدرها حزب الاحرار الدستوريين ويرأس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل ، وقد توطدت الصداقة بينه وبين أبي في ذلك الحين وقد ذكر الدكتور طه في حديث من احاديث الأربعاء ان مجلس تحرير جريدة السياسة كان مجتمعا، وكان النقاش يدور حول الرد على مقالة كتبها الاستاذ أبو شادي عنوانها « ما قول فئة ماقولها » يهاجم بها الاحرار الدستوريين، وبينما كانوا يبحثون في منهج الرد ومن الذي يتولاه، يقول الدكتور طه حسين ان دسوقي اباظه طلع عليهم بمقالة يرد بها على الهجوم عنوانها «هاقول فئة ها قولها » اغنتهم عن التداول في منهج الرد وفيمن يكتبه .

وانفصل الدكتور طه عن الاحرار الدستوريين، وبقـي أبي طبعا سكرتيرا عاما للحزب، ويبدو ان هذا الانفصال جعل الصلة بين الرجلين تهن، فأنا لم أر الدكتور طه في بيتنا ابدا ولكن اسمه كان يملأ بيتنا كما كانت كتبه .

وحين شببت عن الطوق اصبحت انا اشتري هذه الكتب واعطيها لأبي يقرأها أولا ثم اقرأها من بعده فان كان مشغولا قرأتها انا أولا ثم اعطيتها له ، ولا اذكر انني وجدت احداً معجباً بالدكتور طه حسين الأديب اعجاباً جارفاً لا تحفظ فيه ولا قصد مثلما كان أبي معجباً به . وقد تلقيت هذا الاعجاب عن أبي كما يتلقى كل ولد رأي أبيه بلا تحفظ ولا قصد ولا بحث، حتى اذا قرأت له ولغيره اصبحت معجباً به نفس هذا الاعجاب عن فهم تام بما اقرأ وعن ثقة عميقة بأنه خليق بهذا الاعجاب، واكثر ، إن كان هناك اكثر .

واذكر فيما اذكر اننا كنا نصطاف في رأس البر وكنت آنذاك تلميذاً في المرحلة الثانوية وكان يصطاف معنا عمي المستشار جمال الدين بك اباظه وهو رجل لا مثيل له في حب الأدب فقد كان يحفظ من الشعر العربي القديم والحديث حتى شوقي مقداراً لا أعرف ان أحداً من الناس استطاع حفظه، وانا من الذين يعجبون بشوقي ويحفظون الكثير من شعره وكم حاولت أن أروي له من شعر شوقي فما أوشك ان ابتدىء حتى يكمل هو القصيدة باكملها لايفلت منها بيتاً، وكان كذلك امره في جميع الشعر الذي سبق شوقي فما كنت استطيع ان اجعله يسمع إلي الا اذا رويت له من الشعراء المحدثين مثل طاهر ابي فاشا والعوضي الوكيل واحمد الغزالي ومحمود غنيم، وما ذلك الا لأنه كان حين عاصر هؤلاء الشعراء قد اصبح ضعيف البصر ضعفاً لا يمكنه من القراءة الا بصعوبة شديدة . وقد قرأ جمال بك فيما قرأ الأغاني، وهي ما تدري حجماً وتشعب موضوعات، وقد قرأها بامعان حتى لقد كان يقول ان صاحب الاغاني قال في اربعة مواضع منها وسيأتي ذكر هذا فيما بعد ولم يأت .

المهم انني كنت اقرأ لعمي جمال بك في المصيف ما يحب قراءته، وكنت اجد في ذلك متعة ومنفعة، اما المتعة فمصدرها بطبيعة الحال القراءة ورفقتي لهذا العم الذي أحببته كأب واحبني كابن واما الفائدة فانني كنت اقيم بهذه القراءة لساني حتى اتعود الا اخطىء في اللغة او النحو اذا انا قرأت او تكلمت. وفي هذا العام ظهر الجزء الثالث من كتاب على هامش السيرة فكنت اقرأه لعمي جمال بك وفي احد الفصول بدأ الكتاب يصف مشهداً يمهد به للقصة التي سيرويها وقد كان الدكتور طه يحب ان يصف، تطاوعه في ذلك لغة لم يعرفها العرب قبله ولا احسب انهم سيعرفونها من بعده، وكان عمي جمال بك متلهفاً ان يصل إلى القصة التي يسوقها الكتاب وكان هذا الوصف يقف حائلا بينه وبين القصة فكان يضيق بالاطالة ولكنه في نفس الوقت يتوق ان يسمع هذه السيمفونية من الوصف التي يعزفها الدكتور طه بالكلمات فكان يقول « اقفز الصفحات » وقبل ان اطيعه يقول « ولا أقول لك استمر » وهكذا تكرر تردده بين الامرين مرات ومرات حائراً بين رغبته في الاستمتاع باللغة ورغبته في بلوغ القصة ومعرفة احداثها. وهكذا هو طه حسين يرغم القارىء ان يقرأ له مهما يكن ملهوفاً ان ينصرف عنه وان كان سينصرف عنه اليه.

واظنني في غنى عن القول انني قرأت جميع كتب الدكتور طه بغير استثناء. واظنني في غنى عن القول ايضاً انني قرأت اغلب كتبه اكثر من مرة، فانا من ذلك الجيل المظلوم الذي لم يجد حين نشأ كثيراً يقرأه، فقد بدأت قراءتي بكتب كامل الكيلاني وقصصه وغيرها من كتب الاطفال. ولا استطيع ان اذكر الكيلاني وانسى فضله على جيلنا جميعاً فقد اوتي من البراعة في السرد وفي اختيار الالفاظ العربية وشرحها في بساطة موهوبة لم تتأت لكاتب اطفال غيره، فاذا عرفنا انه من احفظ الناس لشعر العرب واذا عرفنا انني لم اجد اديباً آخر يحضره الشاهد لكل ما يسمعه او يقوله او يقرؤه مثلما كان يحضر الكيلاني، لعرفنا ان موهبة الكتابة للاطفال عنده تقف وراءها ثقافة عريضة في الادب العربي. ولا نستطيع ان ننسى للكيلاني ايضاً اننا تعرفنا على يديه ونحن في غضارة الطفولة بشكسبير الذي ترجم اغلب كتبه في شكل

مبسط سهل ممتع وممتنع ايضاً، كما تعرفنا بقصص الف ليلة وليلة في شكل نقي اخاذ .

وقد استطاعت كتب الكيلاني ان تأخذ بيدي إلى الأدب الكبير دون جهد او عنت لم يشق علي ان اقرأ الايام وانا في البواكير الأولى من العمر واذا كنت قد قرأت الايام فما ايسر ان اقرأ ما كان قد ظهر حتى ذلك الحين من كتب توفيق الحكيم والمازني وتيمور، ولعل الكاتب الوحيد الذي شق علي هو العقاد رحمه الله، فلم استطع ان اقرأ له الا بجهد جهيد وعنت شديد، وقد ظل هذا شأني مع كتبه حتى الآن، ولكنني مع ذلك اقرأها معجباً مكبراً مهما تكلفني من المشقة لأنه العقاد، ولا بد ان يقرأ العقاد .

كنا في ذلك الحين نقرأ لهؤلاء العمالقة، وننتظر حتى يصدر احدهم كتاباً آخر فنسعى اليه ملهوفين ونتوفر عليه لا ننصرف عنه او ننتهي منه .

حتى اذا كبرت بعض الشيء استطعت ان اقرأ لهيكل، فقد كنت إلى ذلك الحين اخاف الكتاب الضخم واخشى ان امسك به فلا استطيع ان ابلغ شاطئه الآخر، وهكذا امسكت بكتاب حياة محمد وانا اتوجس من نفسي ومن الكتاب خيفة، حتى اذا امضيت في صفحاته الأولى وجدتها قد اسلمتني إلى صفحاته الاخيرة وانا ذاهل عن الدنيا وعما حولي جميعاً . وهكذا استطعت ان اضم الدكتور هيكل إلى الكتاب الذين آقرأ لهم واذكر مرة وانا في رأس البر، وقد نلت شهادة الثقافة، وكانت هذه الشهادة تسبق الشهادة التوجيهية بسنة، أمسكت كتاب حياة محمد اقرأه للمرة الثانية، وكنت جالساً إلى ابي وإلى الدكتور هيكل فقال له ابي: ثروت يقرأ حياة محمد للمرة الثانية وانا انصحه ان يحاول المذاكرة للتوجيهية التي سيدخلها في عامه القادم، فقال الدكتور هيكل بسعادة بل دعه يقرأ ما يريد .

والحقيقة انني كنت اقرأ حياة محمد للمرة الثانية لا للمتعة وحدها ولكن

لأن الكتب التي كانت جديرة بالقراءة كانت قليلة ونادرة، فهذه الحكاية التي أرويها مثلا وقعت حوالي عام ١٩٤٤، وكانت الحرب الثانية تجتاح العالم فلم يكن احد يؤلف في العالم الغربي، فان كان هناك من يؤلف فان هذه الكتب لم تكن تجد سبيلها إلى مصر، وكيف للكتاب ان يجد مكاناً مع السلاح. البواخر لا تنقل الا الاسلحة، وهيهات للكتب ان تنافس الاسلحة. ولو ان هذه الكتب كانت قد نقلت إلى مصر لكان لا بد لها من نقلة اخرى حتى تصل الينا. كان لا بد ان تجد من ينقلها من لغتها إلى لغتنا العربية. فقد كنا نحن ابناء المدارس المصرية إلى ذلك الحين لا نستطيع ان نقرأ وحدنا كتاباً بلغة اجنبية، فهذه تجربة لم نستطع خوضها الا بعد جهد فردي كبير.

الا انني مع كتب الدكتور طه كان لي موقف آخر فقد كنت — وما زلت — أحب أن أعود إلى كتبه لأنني احب ان اعود اليها. وهانذا اليوم والكتب تنهال علينا من كل حدب وصوب ومن كل لغة نشاء او لا نشاء ومع ذلك

احب ان اعود إلى « الأيام » وإلى على « هامش السيرة » وإلى « احلام شهرزاد» وإلى « الشيخان » وإلى «الفتنة الكبرى» وإلى «مرآة الاسلام» — لماذا؟ لأنها كتب طه حسين ولأنني احب ان اقرأها.

كذلك كنت وكذلك لا أزال. وقد بلغ من شغفي بأدب طه حسين انني حين بدأت الكتابة بدأتها وانا في الخامسة عشر من عمري في مجلة الأسرة. وقد كتبت لها مقالة لا اذكر موضوعها الآن ولكنني اذكر انني بعد ان قرأتها وجدت نفسي اقلد الدكتور طه جاهداً نخلفه جهداً لا يغني ولا يفيد فمزقت المقالة وعزفت عن الكتابة منتوياً الا أعود اليها الا وقد تخلصت من هذا التقليد. فحين عدت اليها كنت اكتب نفسي ولا اكتب تقليداً مشوهاً لعميد الأدب العربي. وكان اول مقال نشرته بعد هذه الواقعة بعام في مجلة الثقافة التي كانت تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر وكان يشرف عليها الاديب العظيم الاستاذ الدكتور احمد أمين بك رحمه الله، وقد اخذ بيدي منذ ذلك الحين

وشجعني على النشر، وقد طمأنني رضاؤه عني انني لم أعد مقلداً فلو كنته لما قبل ان ينشر لي فالاولى به ان ينشر الأصل لا التقليد الممسوخ.»

ولا أظن انني تخلصت من اثر الدكتور بل انني لا اظن انني كنت اريد في يوم ان اتخلص من هذا الاثر، كل ما أردته ان اكون انا فان بقي من أدبه اثر فيما اكتب فليكن اثر الاستاذ على تلميذه واثر الرائد على لاحقيه. وقد قال بعض النقاد انني متأثر به فما كذبتهم، واعتقد انهم ذهبوا إلى هذا المذهب لعنايتي باللغة فيما اكتب، وانا فعلا احب لغتي واحب ان اجملها ما دام تجميلها لا يأتي مني عن صنعة او تكلف او عنف، وانني اضرب عرض الأفق بهذا الرأي الأمي الذي يقول ان اللغة الجميلة تقف حائلا بين القصة أو الرواية ان تصل إلى القراء. فانما هذا رأي ابتدعه المتفرنجون والجهلاء من كتاب القصة والرواية ليعتذروا عن جهلهم بلغتهم فلو اطاقوا ان يكتبوا اللغة الجميلة ما مالوا عنها إلى اللغة الهزيلة، والا فكيف وصلت روايات ديكنز وفاوبير وموباسان ودودريه وهاردي إلى قرائهم بل وكيف وصلت مسرحيات شكسبير وكورني وراسين بل وكيف وصلت روايات طه حسين جميعاً لا استثني منها واحدة.

فهذا الاثر الذي يذكر النقاد انهم يجدونه فيما اكتب من الدكتور طه هو عنايتي بموسيقى الكلمة والجملة وأحبب بهذا من اثر.

وسواء كان النقاد قد فطنوا إلى هذا او لم يفطنوا فانني اشرف ان اقول ان الدكتور طه هو صاحب اكبر اثر علي فيما اكتب، واحمد الله انني استطعت مع اعجابي به واكباري لادبه اعجاباً لا حد له واكباراً ليس له مدى، استطعت ان افلت من قبضته الآخذة القوية الاسر فاكتب نفسي ولا اكتب غيري، مهما يكن هذا الغير هو عملاق الادب العربي وصاحب اجمل اسلوب عرفه العرب في العصر الحديث او غير الحديث. وانني بهذا الحمد احقق رأي طه حسين نفسه الذي كتبه إلى كاتب قلده تقليداً واضحاً لا شبهة فيه ولا شك: فكتب له الدكتور طه خطاباً من العجيب ان الكاتب المقلد اثبته في كتابه، قال

له فيه انه ينبغي ان يتخلص من التقليد وان يكون لنفسه اسلوبه الخاص به .

واللغة الجميلة تقوم بعمل آخر في القصة اعتقد انه جدير بكل عناية . فالقصة والرواية والمسرحية جميعها ادب وارد على الادب العربي ليس اصلا فيه . فالادب العربي لم يدر من هذه الالوان شيئاً فقد كان الشعر يسد اقطار الحياة الادبية على الوان الأدب الاخرى التي ظهرت في العالم، بل انه من عجب ان العرب لم يتأثروا بالمسرحية الاغريقية مع انهم كانوا تجاراً كثيري الأسفار ولا شك انهم رأوا المسرحية فيما رأوا، ولكن على اية حال هذا هو ما حدث، وانني اعتقد ان واجب اجيال كتاب الرواية والقصة المعاصرين ان يثبتوا اصول الرواية والقصة في الأدب العربي، ولن يكون هذا الا بأن تنتسب الرواية والقصة في اللغة إلى الأدب العربي الاصيل . فالمضمون في اغلب امره يفرض نفسه من البيئة ولكل بلد من البلاد العربية بيئتها والشكل يفرض نفسه من الخارج وقل ان يهتدي روائي او قصاص عربي إلى شكل جديد، فان فعل فانما هي مرة او اثنتين ثم عوداً إلى الاشكال التي ارسلها الينا الغرب .

ولا بأس علينا ان نحن تناولنا هذه الاشكال بالتعديل الذي يتواءم مع اذواقنا العربية وادبنا العربي : فتيار الوعي مثلا بدأ حين بدأ عند جويس جملا متناثرة لا رابط بينها ولا صلة . ولكن حين استعمله نجيب محفوظ جعل منه منولوجاً داخلياً مترابطاً . ونجيب حين فعل هذا كان جريئاً ولكن هذه الجرأة واتته من طه حسين فهو أول من حطم الشكل الغربي في استاذية رائعة وكان ذلك في كتابه المعذبون في الأرض :

« وسواء رضي القارىء ام لم يرض فقد كانت ام صالح حية من غير شك لاني انا اريد ذلك وليس يعنيني ما يريد غيري من الناس فانا الذي اخترع صالحاً من لا شيء . أو اخذ صالحاً من عرض الطريق لأن صالحاً موجود ولأنه غير موجود . موجود في حقيقة الأمر لاننا نراه في كل ساعة وكل مكان ، وغير موجود في حقيقة الأمر لاننا نراه في كل ساعة وفي كل مكان

وغير موجود في حقيقة الامر ايضاً لأنه يملأ المدن والقرى ويسرف على نفسه وعلى الناس في الوجود .

والشيء اذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ، كما يقال . فانا اذن وحدي كما كان يقال ايضاً – اعرف من امر صالح ما لا يعرف غيري من الناس ، واقرر ان امه لم تترك الدار لانها ماتت وانما تركت الدار لانها طلقت . وانا استطيع ان اصنع بامه بعد هذا الطلاق ما اشاء : استطيع ان ادعها مطلقة تعمل خادماً في بعض الدور ، واستطيع ان اجد لها زوجاً تعيش معه سعيدة موفورة ، واستطيع ان اسخرها لبيع الخضر ، وقد اسخرها لبيع الفاكهة ، وقد اكلفها ان تصنع الخبز في بيوت الاغنياء واوساط الناس ، وقد اكلفها ان تغسل الثياب في هذه البيوت وقد اجد لها ما أشاء من الاعمال غير هذا كله . لأني حر فيما احب ان اسوق إلى القارىء من حديث ولأن القارىء مضطر إلى ان يتلقى حديثي كما اسوقه اليه ثم هو حر بعد ذلك ان يقبله او يرفضه ، وفي ان يرضى عنه او يسخط عليه . »

ويقول الدكتور في سطور اخرى قبل هذه ببعض صفحات « لا أضع قصة فاخضعها لاصول الفن ولو كنت اضع قصة لما التزمت اخضاعها لهذه الاصول . لأني لا أومن بها ولا اذعن لها ولا اعترف بان للنقاد مهما يكونوا ان يرسموا لي القواعد والقوانين مهما تكن ولا اقبل من القارىء مهما ترتفع منزلته ان يدخل بيني وبين ما احب ان اسوق من الحديث وانما هو كلام يخطر لي فامليه ثم اذيعه فمن شاء ان يقرأه فليقرأه ومن ضاق بقراءته فلينصرف عنه ومن شاء ان يرضى عنه بعد فليرض مشكوراً . ومن شاء ان يسخط عليه بعد فليسخط مشكوراً ايضاً . »

(وواضح من هذه الفقرة انه يقصد عن عمد ان يضرب باصول النقاد التي وضعوها عرض الأفق، ومع ذلك نرى ناقداً كبيراً من تلامذة طه حسين يقف يوماً فينقد هذه السطور من الكتاب قائلا: ان من القواعد القصصية

المعروفة الا يدخل الكاتب إلى القصة ولا ينبىء عن شخصه . وكأن الاستاذ يعتقد ان طه حسين جميعاً لم يكن يعرف هذه القاعدة التي لا يجهلها احد من المشتغلين بفن القصة . ولعل الاستاذ الناقد الكبير نفسه قد تعلم هذه القاعدة من الدكتور طه حسين .

ولكن الناقد أراد ان ينقد دون ان يفكر من هذا الذي ينقده فمثل هذا النقد يوجه إلى الكاتب المبتدىء ليتعرف الطريق حتى اذا استوى عليه لا يجوز لأحد ان يوجهه لأنه ما دام قد خالف القاعدة فلا بد انه يريد ان يخالفها وعلى الناقد بعد ذلك ان يرى ان كان قد احسن أم أساء .

ومن العجيب انني رأيت روايات بعد ذلك لشتاينبك ولعله اعرف كتاب العصر بالشكل الروائي واكثرهم تجارب فيه قد ضرب فيها عرض الأفق هو ايضاً بهذه القاعدة فكان يسفر عن وجهه في القصة ثم يعود إلى الاختفاء غير حافل برأي النقاد ولعل هذا كان في روايتيه اللتين تكمل احداهما الاخرى « الخميس العذب وطريق السردين المعلب » .

وتبعه ايضاً البرتومورافيا في رواية له حاول بها ان يحطم الطقوس التي تعارف عليها القراء والكتاب . وان كانت هذه الرواية لم تلق النجاح الذي تلقاه في أغلب الأمر روايات مورافيا .

قرأت « المعذبون في الأرض » فيما قرأت لاستاذنا الدكتور ولم اكن حينذاك اعرف قواعد القصة ولم اكن ايضاً اعد نفسي لأكون قصاصاً بل لعلي لم اكن اعرف شيئاً عن طريقي في الأدب جميعاً فقد كنت اقرأ لان متعتي في الحياة كانت ان اقرأ .

واذكر انني حين قرأت هذه السطور للدكتور طه تولاني اعجاب كبير به . بل تولتني دهشة كواحد من الناس يسمع عن البحر ثم يراه ...

انه يبهت . لعله كان يظنه ضخماً وكبيراً ولكنه ابداً لن يقدر حقيقة هذه الضخامة وذلك الكبر حتى يراه. كنت ذلك الشخص فقد كنت اكبر الكاتب اكباراً عظيماً واجله .. كان عمل الكاتب في ذهني المغلف بضباب الصبا شيئاً يدعو إلى الابهار ولكن حين قرأت هذه السطور تبينت انه مهما يكن الابهار الذي ينبعث من عمل الكاتب فانه اقل من الحقيقة التي تشرق من هذه السطور . لقد وقفت امام البحر ولم اكن رأيته .

ولا اظن انني ابالغ اذا قلت ان كتب الدكتور طه كانت تبهرني دائماً بل انني لا ابالغ اذا قلت انها ما زالت تبهرني إلى اليوم كما كانت تفعل بي في اول لقاء بيني وبينها منذ لا اذكر متى .

كل ما اذكر انني قرأت الايام في جزئه الأول وانا في مراحل الطفولة الاخيرة واوائل الصبا وقد اعطانيه ابي رحمه الله . ثم قرأت الأيام في جزئه الثاني وانا بعد في ظلال هذه المرحلة . ثم قرأتها مرة اخرى وانا شاب في بواكير الشباب ثم قرأتها وقرأتها لا أعرف متى . وكانت آخر مرة قرأتها فيها منذ سنوات لا تتجاوز الثلاث مع ابنتي وهي مقررة عليها في دراستها .

وقرأت بعد ذلك كل ما كتبه الدكتور طه وهذا شيء اشترك فيه مع كل هاو للأدب في الشرق العربي .

وقد ظللت حتى شببت عن الطوق لا اتصور انني سألتقي بطه حسين ابداً . فقد كنا نحن ابناء هذا الجيل نتصور ان هؤلاء العمالقة من الأدباء لا سبيل إلى الوصول اليهم . فانا مثلا كنت اكتب في مجلة الثقافة وانا تلميذ في نهاية المرحلة الثانوية وبدأت اكتب تمثيليات للاذاعة وانا في اواخر مرحلة التعليم العالي، وقد ظللت طوال هذه السنوات الواقعة بين كتابتي المقالة وكتابتي للتمثيلية احضر ندوة لجنة التأليف والترجمة والنشر، وكان يجلس فيها استاذنا توفيق الحكيم وكنت قبل ان اجلس معه في هذه الندوة اراه على قهوة امام

البنك الاهلي بشارع شريف وكنت أتحرى ان اعبر الشارع وأقف في الناحية الاخرى انظر اليه في اجلال واكبار بضع دقائق ثم انصرف . وكان من الطبيعي حين التقيت به في لجنة التأليف والترجمة والنشر ان اكلمه او اعرفه بنفسي ولكني لم افعل ... خجلت ان افعل . بل والاعجب من ذلك انه كان موظفاً مع أبي في وزارة الشؤون الاجتماعية حين كان ابي وزيراً لهذه الوزارة وقد دعاه في يوم إلى بيتنا لتناول الغداء ودعا معه المرحوم الاستاذ المازني وكان من الطبيعي ان استقبلهما كما استقبل كل ضيوف ابي ولكني مع ذلك خجلت ان استقبلهما او اعرفهما بنفسي ولم يكن ذلك الخجل يتولاني مع أي ضيف من ضيوف ابي مهما يكن شأنه، وظل الحال هكذا مع توفيق بك حتى كان كان يوم من عام ١٩٥٠ . كنا في ندوة بلجنة التأليف والترجمة وكانت قد انتقلت إلى المنيرة . وانقضت الندوة وخرجنا إلى الخارج وتأخرت عن الخروج حتى يخرج الاساتذة الكبار اولا . ولعلي شغلت بحديث استغرق بضع دقائق مع صديقي عثمان نويه الذي كان السبب في تقديمي إلى الدكتور احمد امين وفي ذهابي إلى لجنة التأليف . وانتهى الحديث واتجهت إلى السلم فوجدت الاستاذ توفيق الحكيم منتظراً في ممشى الدار فما أن رآني حتى ابتدرني « هل انت فلان » قلت « نعم » قال اني اسمع رواياتك في الراديو ولا أترك البيت اذا عرفت ان لك رواية » وأظن القارىء في غنى عن أن انقل اليه مدى فرحتي فليس إلى نقلها من سبيل . المهم انني لم استطع ان اكلم الاستاذ توفيق الحكيم لمدة سنوات طوال ولم يستطع الحديث ان يتصل بيننا الا حين بدأني هو به .

فكيف السبيل اذن إلى الدكتور طه حسين . قد يكون سبيلي إلى الاستاذ توفيق الحكيم ميسوراً فهو يخرج إلى الناس ويجالسهم . اما الدكتور طه فقد كان تصوري انه قليل الخروج محدود الصلة بالناس .

وهكذا طويتِ أمل اللقاء به او الحديث اليه مع ما نطويه من آمال لا سبيل إلى تحقيقها واكتفيت ان أقرأ له مع من يقرأون واكتفيت بان اتسقط انباءه

ما كان منها تاريخاً او ما كان منها حديثاً دائراً بين الناس . وسمعت فيما سمعت عن مقالاته السياسية التي كانت تهز ارجاء البلاد هزاً مع أنها كانت مقالات تهاجم سعد زغلول وهو من هو زعامة وشعبية . وسمعت فيما سمعت بعض عناوين هذه المقالات وبعض فقرات منها فكنت احفظ العناوين واحفظ الفقرات

وظل الحال هكذا حتى توفي ابي في ٢٢ يناير سنة ١٩٥٣ . وكان حزب الاحرار الدستوريين قد حل مع الاحزاب الاخرى قبيل وفاته بأيام قلائل . وأراد اعضاء الحزب ان يقيموا له حفل تأبين فتولى الدكتور هيكل باشا الأمر وبدأ يعد العدة لاقامة حفل التأبين .

واسمى الجماعة التي تقوم بحفل التأبين اللجنة القومية . وراح الدكتور هيكل باشا متفضلا يتصل بالمتحدثين في الحفل . وكنت في زيارة له فقال لي انه يريد ان يكلم الدكتور طه حسين ليشترك في حفل التأبين ثم قام إلى التليفون فطلب الدكتور طه فسمعت صوته في التليفون فقد كنت واقفاً بجوار الدكتور هيكل وكانت التليفونات ما زالت صالحة . وكانت هذه هي المرة الأولى التي اسمع فيها صوته في التليفون فقد حضرت له محاضرات في الجامعة الامريكية وسمعته في احاديث الاذاعة ولكني لم اسمع صوته في التليفون ابداً . وقال له الدكتور هيكل « يا طه » . وتعجبت للحظة .. كيف يمكن ان ينادي الدكتور طه حسين باشا جميعاً « بيا طه » وما لبثت ان تذكرت ان المتحدث هو الدكتور هيكل وانهما زملاء عمر وزملاء جريدة السياسة وزملاء قلم . ولم يحس الدكتور هيكل بما دار في خلدي والحمد لله واكمل حديثه « اننا نقيم حفل تأبين لدسوقي يوم كذا الساعة كذا . وسمعت الدكتور طه يقول « في هذا الموعد انا عندي محاضرة سألغيها واجيء لأتكلم في التأبين » .

وهكذا شاء القدر ان يكون اول لقاء لي بالدكتور طه حسين في مناسبة من اكرم المناسبات واقربها إلى مشاعري .. وهكذا شاء القدر ايضاً ان يكون

الدكتور طه متفضلا علي فضلا لا استطيع ان انساه ولا أملك الوسيلة لشكره عليه.

وفي يوم الحفل جاء الدكتور طه والقى كلمة التأبين . وانا احب ان اثبتها في هذا الكتاب فهي اولا كلمة لم تنشر ومن حق كل كلمة القاها الدكتور طه ان تنشر وهي مهداة إلى ابي وانا الذي أوْلف هذا الكتاب فلا بأس علي ان اثبتها وفاء لأبي ان لم يكن لأي معنى آخر ...

« انا إلى الله راجعون لقد
أصبح حزني عليك ألواناً
حزن اشتياق وحزن مرزأة
اذا انقضى عاد كالذي كانا

غيري من الخطباء والشعراء اقدر مني على ذكر مآثر الفقيد العزيز وتعدادها ان كان إلى تعدادها سبيل .

اما انا فلم اقم موْبناً او معدداً للمآثر ، وانما انا صديق يقول كلمة حق في صديق . لا ابكيه، ومتى نفع البكاء على الذين فارقوا الدنيا ؟ انه لا يردهم ولا يسلي الباقين على ما يجدون من حزن .

لا ابكيه هو ، وانما ابكي لاصدقائه الذين عاشوا بعده — وانا منهم — فان فقد الاصدقاء ليس إلى تعويضه وليس إلى العزاء عنه سبيل .

ان الشباب يستطيعون ان يستقبلوا حياتهم في امل رضي ، يستطيعون ان يجددوا عهدهم بالاصدقاء — اما الذين تقدمت بهم السن فانهم اذ يفقدون صديقاً فان حزنهم مقيم ما اقاموا في هذه الديار ، حزنهم لهم صديق وعشير ملازم لعقولهم مستقر في اعماق ضمائرهم، يضطربون في شوُونهم مع الناس ولكنهم ما يكادون يخلون إلى انفسهم حتى يجدوا الحسرة والهم والبوْس .

اني — ايها السادة — لاذكر هذا الصديق الكريم منذ عرفته في ميعة الشباب كنا في ذلك الوقت نشيطين عنيفين في نشاطنا ، نستقبل الحياة غير حافلين باحداثها قد آمنا بالحق واندفعنا في سبيل الذود عنه لا نعمل لأحد ولا لشيء حساباً وانما نندفع مع الحق حيث يريد ان يدفعنا . وكان هذا الصديق اخاً كريماً وفياً يذكرنا اذا غبنا عنه ويتفقدنا ان طالت غيبتنا ، ثم اخذت الأيام تفرق ما بيننا فكدنا لا نلتقي الا بين العام والعام . ولكننا كنا على ما عرف كل منا لصاحبه من الود وصدق الوفاء ، واني لاذكر ذات يوم — وكان وزيراً — وكنت من اشد الناس عنفاً في مخاصمة وزارته التي كان فيها ، كنت اصبحها وامسيها باللوم الشديد - ولكني لا اذكر اني وجدت على دسوقي مأخذاً او مغمزاً — وما اذكر اني فكرت فيه لحظة حين اوجه إلى وزارته اشد اللوم واعنفه — ومع ذلك فقد شكا إلي بعض الناس انه يطلب التليفون منذ خمس سنين ولا يجد السبيل اليه الا سبلا لا يريد ان يسلكها ، وذكرت ان دسوقي هو وزير المواصلات واستحييت ان اكلمه في ذلك فكلفت صديقاً بذلك واني لجالس ذات يوم واذا دسوقي يدعوني بالتليفون ويعتب علي عتباً مريراً علي ان وسطت بيني وبينه صديقاً حتى اضطرني ان آ.

واذكر اصدقاء آخرين سبقوه إلى الموت ماتوا كما
الا انهم في قلبي احياء لم يرفق واحد منهم على هذه النفس البائسة
بديع الاصدقاء حتى سئمت توديعهم وتمنت ان تفرغ من هذا
التوديع كما يقول أبو العلاء .

ان قلوب الاصدقاء الاوفياء اشبه شيء بالمقابر الحية في كل قلب مقبرة تعيش مع صاحب هذا القلب يخلو اليها حين يجن الليل يتحدث اليهم ويذكر الساعات الحلوة التي لم تشتق حلاوتها من متاع الحياة واغراضها وانما اشتقته من صدق الود وكرم الصلة وحسن الوفاء .

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء ان يترحما
وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

بنيان هذه الأسرة الكريمة وبنيان هؤلاء الأدباء الذين كان يحبهم ويؤثرهم ويرعى الشباب الذين يحتاجون إلى الرعاية منهم لا يتكثر بذلك ولا يتخذه فخراً ورياء وانما فطر محباً للأدب فرأى حقاً للأدب ان يرعى الأدباء . وبنيان اصدقائه هؤلاء الذين يذكرونه محبين في كل آن .

لا أقول فيه الا ما قاله رسول الله حين مات ابنه في حجره فدمعت عينه فقال له بعض اصحابه اتبكي وقد نهيت الناس عن البكاء فقال :

« ان النفس لتجزع وان العين لتدمع وانا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون »

وبهذا الحديث انهى الدكتور طه كلمته وهي كما ترى كلمة بسيطة لم يتكلف فيها الرثاء ولم يفتعله افتعالا، ولكنني — ولا ادري لماذا — أحس انها صادرة من اعماق قلبه . وكنت وانا استمع اليها ابكي بكاء مرّاً كأني اواجه موت ابي من جديد في كل كلمة منها .

كنت احب طه حسين الاديب . ويومذاك أحببت طه حسين الانسان . وظللت احب الاثنين فيه حتى الآن وما أشك في ان هذا الحب سيصحبني يوم انا ذاهب إلى لقائه هو وابي في عليين .

انتهى الحفل وصرت حائراً ماذا افعل لاشكره . واستحييت ان اقصده لأول مرة في حياتي لاشكره . ومن انا حتى اشكره ... انه حين رثى ابي انما رثى صديقه وفاء منه له . فأي شأن لي انا حتى اذهب للشكر . ان ابي شخصية عامة والشخصية العامة ارفع من ان تكون ملك ابنائها أو آلها . فالذهاب لمجرد الشكر وحده لا محل له .

كان صديقنا الاستاذ الشاعر الوفي احمد عبد المجيد الغزالي يقوم بجمع

الكلمات والقصائد التي قيلت في حفلات تأبين ابي . وقد تم له ذلك فرأيت ان أقل ما استطيع ان اقدمه إلى الدكتور طه حسين هو هذا الكتاب . وكان كتابي « ابن عمار » قد ظهر في هذا الحين فحملت الكتابين وقصدت إلى منزل الدكتور طه الذي كان بالزمالك آنذاك . وكان الدكتور طه جالساً في شرفة بيته يستقبل الزوار والشمس فجلست اليه وقدمت الكتابين . واذكر ان تحدثنا يومذاك عن موقعة الأحزاب وموقف اليهود منها واذكر انني سألته ان كان يرى بعض العنف في المقتلة التي اصاب بها النبي اليهود في اعقاب هذه الموقعة ، فقال لم يكن للنبي خيار ، انه يومذاك لم يقتل اليهود لأنهم يهود وانما قتل ابناء مدينة خانوها ، فلو كان يريد ان يقتل اليهود لقتلهم قبل ذلك ولكن الواقع انهم الخونة وعقوبة الخيانة القتل حتى يومنا هذا بعد كل هذه الحضارة والرفاهية التي ألمت بالجنس البشري فكيف بهذه الفترة من الزمان حيث كان القتل بعض عمل العرب . واذكر انه قال يومذاك ايضاً ان الاسلام ادخل الكثير من الرحمة والشفقة إلى القارب وهي معان كانت بعيدة عن الخلق العربي بل كان العربي يرى فيها بعض اخلاق النساء . فحين جاء الاسلام منع وأد المواليد من اناث وذكور وجعل القتل عقوبة على المعاصي الكبرى . وحين عاد الحديث إلى اليهود قال : لم يكن النبي يستطيع ان يفعل بهم اقل من هذا فلو تركهم يخرجون فسيكونون حرباً عليه والاسلام بعد في ايامه الأولى لم تثبت رواسيه ولم تقم اركانه . ولو تركهم يقيمون دون ما عقاب فسيكونون بؤرة خيانة في حرب يخوضها المسلمون بعد ذلك .

اذكر انني زرت الدكتور طه بعد ذلك مرة واحدة او اثنتين في بيته بالزمالك ثم انتقل بعد ذلك إلى بيته « رامتان » بالهرم .

كنت في هذه الأيام الأول من تعرفي بالدكتور اتحرج ان اثقل عليه بالزيارة وكنت أحسب أن صلتي به ستكون في حدود رسمية لا تتعداها . وكان ان هاجم أحد الكتاب الاساتذة الكبار من رواد الأدب العربي . [illegible] عمري آكره هذه الطريقة في محاولة الظهور . وقد كنت ولا زلت

أرى فيها طريقة رخيصة غاية الرخص في التسلق على اكتافهم . فكتبت مقالة عنيفة في مجلة الرسالة الجديدة التي كنت اكتب بها في هذه الأيام . وكان ان ذهبت في اعقاب المقالة إلى دار الأدباء وكان مقرها نادي القصة الآن وكانت هناك مناسبة لا اذكرها فكان بالدار جمع كبير على رأسه الدكتور طه حسين فتقدمت اليه مسلماً فأبدى رضاءه عن المقالة فأسعدني هذا ولكنني ظللت على تحرجي من الزيارة وعلى اعتقادي ان صلتي بالدكتور ستظل في حدود رسمية لن تتعداها .

(٢)

كنت خليقاً ان أظل على تباعدي ولكن مهما يكن ايماني بالاختيار لا بالجبر فان الحياة تركب صدفاً بعيدة كل البعد عما يحاول الانسان ان يرتبه أو يسير فيه . ولعل حكايتي مع أمين يوسف غراب تدل على هذه الحقيقة أصدق دلالة . فقد كنت اريد لقاءه في امر هام وكان منقولا حديثاً إلى القاهرة فلم يكن عنده تليفون وكان منقولا ايضاً من وظيفته في السكة الحديد ولم يكن قد تسلم عمله الجديد بعد وليس عندي عنوان بيته . ورحت اسأل عنه كل من أعرف انه على صلة به وعبثاً ضاع جهدي . إلى ان كان يوم ذهبت فيه إلى زيارة زميل دراستي عبد الفتاح مجدي واذا بي افاجأ بلافتة تحمل اسم امين يوسف غراب على الشقة المقابلة لشقة مجدي وعن طريق امين يوسف غراب أصبحت احد ابناء الدكتور طه المقربين . فقد كان امين يزور الدكتور من حين إلى آخر وكان يطلب مني ان اذهب معه فأتحرج .

حتى كان يوم أخبرني امين ان الدكتور يسأل عني ويتساءل لماذا لاأذهب اليه وعندئذ تشجعت وذهبت مع أمين . وتعودت على هذه الزيارات . واذكر ان أميناً اخبرني يوماً انه يؤلف رواية أو قصة قصيرة لا أذكر وقص عليّ فكرة القصة فقلت له انك تقيم قصتك على فكرة فيها خطأ شرعي . وذهبنا إلى الدكتور

وسأل الدكتور أميناً - كما يفعل دائماً مع ابنائه - عما يكتبه في تلك الآونة . فتطوعت انا للاجابة راوياً القصة ذاكراً أنها تقوم على فكرة فيها خطأ شرعي فقال الدكتور « أظنك على حق ... يا فريد هات المصحف » وجاء فريد بالمصحف فقال له « اقرأ الآية التي أولها كذا ...» فقرأها فقال له « اقرأ قبلها بآيتين » فقرأ فاذا هي الآية التي تحمل شاهد المسألة الشرعية التي اختلفت فيها مع امين وقمت من هذه الجلسة وانا مذهول من هذه الذاكرة الحافظة فقد كنت قبل ان يصدر المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم اسأل الشيخ من المقرئين عن آية أريد ان انقلها كشاهد فيما اكتب فاذا هو يتلو السورة كاملة ليصل إلى الآية المنشودة .

في هذه الفترة صدر كتابي «هارب من الأيام» فكان من الطبيعي ان اقدم منه نسخة إلى استاذي الكبير . وكان أقصى أمل أطمع فيه ان يقرأ طه حسين الكتاب . وكان هذا الأمل يلوح لي كسراب في صحراء يبدو وما يلبث عند التمعن ان يختفي . فلقد اهديت له من قبل « ابن عمار » فلم يذكر لي عنه شيئاً واستحييت ان اسأله وابن عمار كتيب صغير قد يفرغ منه قارئه في ساعة وبعض الساعة فكيف أطلب أو أتصور ان طه حسين جميعاً سيقرأ هارب من الأيام وهي الرواية التي أنافت صفحاتها على الثلاثمائة صفحة ... ثم من أنا حتى يقرأ لي طه حسين ... انما عرفني فتى شاباً يكتب بعض المقالات في الصحف ويعجب به اعجاباً شديداً وليس هذا ولا ذاك بسبب كاف ان يقرأ لي طه حسين فكم هناك من كتاب المقالات وكم له من معجبين . وكنت حينذاك في أواخر العشرينات من عمري لا أكاد ابدأ الثلاثين وقد سألني عن سني وعرفه ... لا .. لا سبيل إلى هذا ... لا سبيل .

وفي يوم زارني امين غراب وقال هلم بنا إلى الدكتور طه وسألته « ما المناسبة » قال « لا مناسبة لقد قرأ روايتك ويريد أن يراك » وسمعت الخبر ووجدت له في نفسي صدى الفرحة التي تواتيك اذا تحقق لك هدف لم تتصور ان تجعل منه أملا لك حتى لا يفجعك انهدامه . ولم ألبث . قمت من فوري

مع أمين فما هي الا الومضة الخاطفة حتى كنت جالساً إلى الدكتور طه وكان معه بعض الزوار . وكان الحديث بينه وبين زواره جارياً فتركه في مجراه بعض الوقت ثم مال إلي « هيه ياعم ثروت. روايتك عظيمة » فقلت: يكفيها شرفاً انك قرأتها . وحينئذ قال جملة سأثبتها هنا مهما يكن في اثباتها من نرجسية. فربما كان رأيي انا غير هذا الرأي . ولكنها كلمة سمعتها من طه حسين جميعاً ولم أقلها الا إلى الخاصة المقربين استحياء من العجب والزهو واليوم قد مات الرجل . وقد كنت يوم قال ذلك اتحسس الطريق بخطوات متعثرة في عالم القصة . وقد كنت يومذاك في الثلاثين من عمري بل لعلي كنت قبيل الثلاثين . أما اليوم فقد وضح منهجي في القصة ومن كان راضياً عنه فشكراً له ومن لم يكن فاني اعتذر اليه انني لم أستطع ارضاءه . ولكني على كل حال اصبح لي مكاني المحدد الواضح ان كان قليلا عند بعض او كان كثيراً عند بعض آخرين فهو قد تحدد وما كان كان والأمر لله . فأنا اليوم قد تخطيت السادسة والأربعين ولا سبيل لي أن اغير نفسي او اغير منهجي فاذا خيل اليك انني اعتذر عن الجملة التي قالها لي الدكتور . فنعم . اني اعتذر . فما كرهت شيئاً قدر ان يمدح الانسان نفسه . وما وجدت شيئاً يصغر بالانسان قدر المديح الذي يطلقه هو عن نفسه ولكنك اذا اتحت لي المعذرة انني ناقل ولست منشئاً لمديح . واذا اتحت لي العذر ان اكتب كتاباً عن طه حسين بعيداً كل البعد عن الدراسة المنهجية والأكاديمية . اذا اتحت لي العذر بهذا جميعاً فشكراً لك واذا اصررت بعد ذلك على مؤاخذتي فقل اني سخيف وسأحتملها في سبيل ان اذكر هذه الجملة التي قالها عميد الأدب العربي .

قال الدكتور بالحرف الواحد « باخلاص لم يكتب في تاريخ العربية عن الريف المصري مثلما كتبت انت في هارب من الايام » .

فاذا ذكرت ايها القارىء هؤلاء الذين كتبوا في الريف المصري، اولئك الذين لا اجروٌ ان اذكرهم انا وانما اكتفي فقط ان اقول ان عميدنا نفسه قد كتب الكثير من الروايات في الريف المصري . اذا ذكرت هؤلاء ولم تمهد لي

المعذرة في ان اثبت هذه الجملة فمرة اخرى ارمني باني سخيف وامري إلى الله .

وبعد فليس هذا الكتاب مديحاً لي ولكن اذا كان المديح من طه حسين فاني ساذكره واغفروا لي هذا . فان كل انسان يطرب للمديح . ولكن الانسان ايضاً مع السن يعرف المديح الذي يخلق به ان يطرب له والمديح الذي يخلق به ان ينصرف عنه كأنه ما قيل . ومديح طه حسين دائماً وفي كل وقت مديح يسعي اليه . فاذا سعى هذا المديح إلى كاتب دون مجهود منه فانه اذن مغرور اذا لم يزه به او على الاقل يلتمس الثقة بالنفس .

ثم قال الدكتور بعد ذلك «انك أديب قلت ما تريد قوله عن طريق الرواية» وطبعا لا أنتظر أن تسألني عما أجبت به طه حسين فاني لم أعد اذكره فقد وجدت نفسي فجأة وبلا مقدمات أديباً يقرأ له طه حسين ويلقي اليه بهذا الحديث فلا عجب اذا أن يصيبني الدوار ... بل أنواع من الدوار .. دوار الفرح ... ودوار الزهو .. ودوار الشعور بأن الأمل الذي كان يبدو لي بعيداً في أن اصبح من جملة الأدباء قد تحقق . وانواع اخرى من الدوار لم أعد اذكرها اليوم وقبل ان اقوم قال لي الدكتور :

– ومع ذلك حاشد ودنك !

قلت «لماذا يا معالي الباشا» قال :

– سترى

وخرجت مع أمين لا اكاد أحس أنني أسير .

وماهي الا أيام قلائل حتى ضرب جرس التليفون في منزلي . وكانت جريدة الجمهورية وطلب المتحدث منها ضورة لي لينشرها مع مقال الدكتور طه عني فأرسلت الصورة ولم أنم الليل وتنظرت الجريدة مع الفجر .

وجلست أقرأ المقال . طبعاً لا تنتظر مني أن أذهب في السخافة الى المدى الذي يجعلني انقل اليك المقال . ولكني سانقل منه بعض فقرات قد يطيب لي أن أعلق عليها .

فاستاذنا لم يعجبه العنوان لأنه لا مهرب من الزمان للكائن الحي مادام حياً وذلك ما قاله ابو العلاء في بيته الرائع الخالد :

ولو طار جبريل بقية عمره
من الدهر ما اسطاع الخروج من الدهر

ثم يقول الاستاذ العميد «واكبر الظن ان هذا العنوان انما راق المؤلف لأن فيه شيئاً من الغرابة والغموض يروعانه هو أولا ويروعان كثيراً من قرائه بعد ذلك . وان كان شيء منهما لم يرعني ولو أنني أطعت العنوان لا نصرفت عن قراءة القصة ولحرمت نفسي متعة قيمة حقاً . فقد اتيح للاستاذ ثروت اباظة حظ حسن جداً من الاجادة مكنه ان يفرض عليك المضي في القصة اذا بدأتها حتى تبلغ غايتها بل مكنه من ان يفرض عليّ أنا قراءتها مرتين لم اباعد بينهما في الزمان . »

ومن اجل هذه الأنا الرائعة نقلت اليك هذه الفقرة فهو فيها يعرف نفسه حق المعرفة ... وأي تحية يمكن ان يقدمها لكاتب أعظم من أن يقول .. مكنه من أن يفرض عليّ أنا قراءتها مرتين ...

وأنت طبعاً تدرك وقع هذه الجملة على فتى لم يجرؤ ان يقيم في نفسه أملا بأن يقرأ طه حسين روايته .

اما الفقرة الاخرى التي أريد أن انقلها فهي هجوم الدكتور طه على

رواية هارب من الايام . ولا أحب ان تظن بي التواضع ولكن حين اكمل لك قصة هذا الهجوم ستدرك انني سعدت به اكثر من سعادتي لأي مديح نلته في حياتي . فقد كان الدكتور طه في نقده لهذه الرواية ولغيرها من الروايات التي نقدها لي استاذاً يبدي رأيه فيما يكتبه احد تلامذته ولكنه في هذا الهجوم الذي اثبته في نقده لهارب من الأيام كان أبا يذود عن ابنه عادية العنف والجبروت . قال الدكتور :

وقد لخصت لك هذه القصة في اطالة شديدة وفي ايجاز اشد منها لم أجد بدا من الاطالة لأبين لك ان القصة واقعية في تفصيلها نائية في جملتها وفي غايتها عن الواقع . كل التفصيلات يعرفها الناس ويرون اشباهها لها في حياة بعض القرى احيانا . ولكن هذه الجماعة التي تأتلف لتأخذ من الاغنياء وترد على الفقراء ليست من واقع الحياة في شيء ليس من واقع الحياة ان يتخذ الناس الاثم والنكر وسيلة الى الخير وان يتخذوا هذا الخير نفسه وهو اعطاء الفقراء وسيلة الى اقتراف الجرائم والآثام .

كل هذا ابتكره خيال الكاتب الشاب ابتكاراً وليس عليه بذلك بأس . فمن حق الكاتب ان يستجيب لخياله حتى حين ينأى به عن الواقع شيئاً . ولكن ليس للكاتب ان ينسى ان قصته تنشر على الناس فيقرؤها منهم الراشدون والقاصرون ويقرؤها منهم العقلاء والاغرار وقد ينخدع بعض هؤلاء عن بعض ما يقرأون . وقد يصادف من نفوسهم مواطن الضعف وقد يورطهم ذلك في بعض ما يسوؤهم . ويسوء الناس بهم . والكاتب مسؤول أمام ضميره أولا وامام الجماعة التي يكتب لها ثانياً . فليس له بد من أن يستحضر تبعته حين يكتب وحين ينشر او يذيع . ولست أدري من أين اشتق خيال الكاتب لهذه الصورة ، صورة العصبة الآثمة التي تتخذ الاثم وسيلة الى البر وتتخذ البر نفسه وسيلة الى الاثم . أيمكن ان يكون قد قرأ كثيراً او قليلا من اخبار الصعاليك في حياة الجاهلية وفي بعض الاعصار العربية بعد

الاسلام . أولئك الذين كانت تضيق بهم سبل العيش ويكرهون النظام الاجتماعي الذي لا يتيح لهم تحقيق ما يطمحون اليه فيخرجون على النظام ويستبيحون لأنفسهم النهب والسلب والقتل احياناً ويعيشون في عزلة عن الجماعة لا يدنون منها الا ليروعوها ويرزؤوها في اموالها ثم ينأون عنها ليعيشوا في عزلتهم اجوادا كراما يؤمنون الخائف الذي ينقطع به الطريق ويطعمون الجائع ويعطون المحروم ويرون هذا كله مكملا لمروءتهم ومحققا لرجولتهم ويفاخرون بهذا كله في شعرهم الذي حفظت منه كتب الأدب اطرافا لا بأس بها .

ولكن عصر الصعاليك قد انقضى فنحن لا نعيش في البادية ولا في القرن الأول الهجري وانما نعيش في الحاضرة ونعيش في القرن الرابع عشر للهجرة وما ينبغي لعصر الصعاليك أن يعود وهو لم يعد والحمد لله . أفيكون الاستاذ قد قرأ شيئاً من اخبار هؤلاء الصعاليك الذين يأخذون من الاغنياء ليردوا على الفقراء ولا يغضب الكاتب فقد كنت احب ان يجد صيغة اخرى غير الاخذ من الاغنياء والرد على الفقراء لأن لهذه الصيغة مكانها الملحوظ من فرض الزكاة وتحبيب الصدقة الى الناس .

حين قرأت مقال الاستاذ الدكتور ظللت استعيده حتى قاربت الساعة الضحى فذهبت الى منزل الدكتور ووجدته جالسا بمكتبه . وتقدمت اليه بالشكر فاذا هو يقول :

– أنت مزعلتش

– ازعل وده معقول ...

– قل لي ايه قصدك من روايتك

– معاليك فهمت قصدي

ــ احب ان اعرف منك

ــ معاليك قلت لي انت اديب قلت رأيك عن طريق الرواية

ــ أيوه ... لكن عايز أعرف منك

فقلت له انني بطبيعة الحال لم اقصد مجرد ظاهر النص فقال

ــ آه انا فهمت كده برضه . بس انا باستحلفك برحمة والدك وبحياتي عندك اذا كان لحياتي عندك قيمة الا تذكر ما قصدته لاحد مهما يكن قريبا منك فانا اخاف عليك العواقب .. فالواقع ان العواقب غير مأمونة وانا قصدت أن اقسو عليك وأفسر الرواية تفسيراً خاطئاً واجعل العمدة هو الهارب من الأيام حتى يمكنك اذا سئلت ان تستشهد بمقالتي دي على انك لم تقصد شيئاً .

ألجمني هذا الحديث وفكرت ان اقبل الرجل ولم استطع فقد منعتني هيبته ان افعل ولكن وجدت دموعاً تنحدر من عيني لم يرها الرجل فاننا لا نلتقي بحنان الأب في حياتنا الا نادرا بل انني اوشك ان اقول ان الانسان لا يلتقي بهذا الحنان الا مع الأب وحده .

كيف تأتى لطه حسين وهو طه حسين ان يخطىء نفسه ويلوي تفسير القصة بهذا العنف ويقبل ان يقول عنه القارىء انه لم يفهم القصة في سبيل ان يحمي كاتباً لم يعرفه الا منذ قريب ان يعدو عليه طغيان .

انتهت المقابلة ولا اذكر كيف انتهت ولكنني اذكر انني كنت مسافراً الى البلدة في ذلك اليوم وانتهزت فرصة انني لست في القاهرة وكتبت خطاباً الى الدكتور طه كشفت فيها عن مشاعري التي منعني جلاله ان اكشف عنها بمشهد منه .

وصدق حدسي في ان بعض الناس سيقولون ان طه حسين لم يفهم الرواية فكيف يقول ان الهارب من الأيام هو العمدة وليس كمالا الطبال . فان في بعض الناس صغارا ، وكثير منهم يحب ان يتسقط الاخطاء للعمالقة . وقد استطاع صغارهم ان يهيئ لهم ان طه حسين الذي علم هذه الاجيال جميعاً يخطئ في فهم رواية أبعد ما تكون عن الغموض ٥

وفي بعض آخر من الناس غباء . وفي بعض منهم طيبة ومن هؤلاء الاخرين استاذنا فريد ابو حديد . فقد وضعت مقالة الدكتور طه عن هارب من الأيام في الطبعة الثانية وماتلاها من طبعات على رغم كرهي الشديد للمقدمات في العمل الفني الا ان طه حسين استثناء لا يقاس عليه . وشاءت الجمعية الادبية المصرية ان تناقش الرواية في ندوة لها وشاء استاذنا فريد ابو حديد ان يناقش هذا الرأي للدكتور طه فسألني «كيف فهم الدكتور طه الرواية على ان الهارب من الأيام هو العمدة وليس كمالا الطبال «فقلت» هذا شأن الدكتور طه «فقال» ولكنك وضعت مقالته في اول الطبعة الثانية «فقلت» لأنها مقالة الدكتور وكل ما يكتبه الدكتور طه على رأسي من فوق «فسكت استاذنا فريد ابو حديد ولم يشأ أن يطيل في النقاش .

توطدت صلتي بعد ذلك بالدكتور طه وشهدت من اخلاقه ما لا يعرفه عنه الكثيرون فهو كريم غاية الكرم يصل الناس ويخص بصلته المكفوفين وليس في هذا غرابة . كنت في مجلسه يوماً فقدم اليه شخص كفيف البصر ويبدو انه كان يعلم عنه انه رقيق الحال فاستدعاه ومد يده اليه ليصافحه وطبعا لم ير الضيف يده فتقدم فريد في دربه ووضع يد كل منهما في يد الآخر .. ثم اخرج الدكتور طه حافظة نقوده واخرج منها ورقة مالية وسأل فريد بالفرنسية «أهذه خمسة جنيهات» فقال فريد «نعم» فقدمها الى الرجل الذي لم يرها ويمسك فريد بيده مرة اخرى ويضعها في يد الضيف . فشكره الرجل ثم سأله عن شأن له فانبأه انه تكلم في أمره الى المختص وانصرف الرجل .

ولا أكتمك لقد تأثرت غاية التأثر وانا ارى فريدا مرتين يضع يد كل منهما في يد الآخر ولا أدري لعلني تذكرت في هذه اللحظات ابيات مطران

اذا وسع الكون فكر امرىء   فلا بأس بالطرف ان يحسرا
على الشمس ان تهدي المبصرين   وليس على الشمس ان تبصرا

وكان الدكتور كثيراً ما يطيب له ان يروي ذكرياته . وقد كان دائما يروي لي عن ابي قصته تلك التي رواها في رثائه عن التليفون ويبدو انه كان متأثرا بها غاية التأثر وروى لي مرة قصة عن ابيه لعلها بسيطة ولكني أحب دائما ان أرويها . فهو يقول انه حين عين استاذا في الجامعة كان الدرس الأول له عن الجزيرة العربية فطلب ان تعد خريطة بارزة للعالم العربي واستعان بالسيدة الفاضلة زوجته في معرفة هذه التضاريس باللمس . وقبل ان يدخل المحاضرة طلب ان توضع الخريطة على منصة الاستاذ ودخل فألقى الدرس عن جغرافية الجزيرة العربية واستعان في شرح الدرس بالخريطة مشيرا على تضاريسها وكأنه يبصرها وحين انتهى الدرس صفق الطلبة تصفيقاً شديداً اشعره انه بلغ من نفوسهم ما يريد ان يبلغ وعند خروجه فوجىء أن اباه كان حاضرا للدرس فقال له :

– وانت يا أبي لماذا تعذب نفسك بسماع هذا الكلام الذي لاصلة لك به فقال له :

– ومن قال لك اني أريد أن افهم شيئاً مما تقول

– امال جاي ليه

– جاي أشوفك وانت بتدرس التلامذة

لا أدري لماذا .. او لعلني أدري لماذا اتأثر بهذا الحوار كلما ذكرته لأحد ولا أخفيك ان الدموع تشرئب في عيني الآن وانا اكتب هذه الكلمات .

ولعله يحلو لي ان اذكر فيما اذكر الحلقة التلفزيونية التي اعدها الاستاذانيس منصور ليجتمع بعض الكتاب والادباء بعميدهم الدكتور طه حسين في منزله . ولا اعرف ان حلقة تلفزيونية لاقت من النجاح او النقاش قدر ما لاقت هذه الحلقة . وقد تناقلها التلفزيون في البلاد العربية جميعاً فكان لها صدى بعيد حيثما عرضت واذكر من هؤلاء نجيب محفوظ ، يوسف السباعي ، عبد الرحمن الشرقاوي، د . عبد الرحمن بدوي ، أمين يوسف غراب ، محمود امين العالم ، أنيس منصور ، وقد ذهبنا الى البيت فوجدنا البيت يضرب يقلب كما يقول المثل العامي وانا اعرف ان السيدة حرم الدكتور تحب ان يكون البيت مرتباً دائماً فتوقعت ان تثور السيدة على هذه الفوضى التي اشاعها التلفزيون ومعداته في البيت . وصح ما توقعته فالسيدة ثائرة وقد كان الدكتور طه في ذلك الحين مريضا بعض الشيء فزاد هذا من ثورتها فاستدعتني وقالت لي في حدة «انت المسؤول عن الدكتور اذا أحس بتعب او ألم فعليك ان توقف التسجيل فورا وانا اتركه امانة في يديك انت وانت المسؤول امامي»

فقلت لها لا تخافي . سافعل هذا، وخرجت الى الحديقة حيث كنا ننتظر حتى نستدعى الى التسجيل . وكان بالحديقة محمود امين العالم وكان في هذه الفترة قد كتب مقالة غاية في العنف مهاجما عبد الرحمن الشرقاوي وقد اتسمت المقالة بشيء اسوأ من العنف فقد كان ينقد مسرحية الشرقاوي «الفتى مهران» . وبدلا من ان ينقدها نقدا موضوعياً راح يكشف خباياها فأصبح النقد اشبه ما يكون ببلاغ بوليس . وهو امر تواضع النقد على التعفف عنه فالرموز في الرواية امر يتخفى وراء العمل الفني وفهم هذه الرموز يختلف من قارىء الى آخر فلا يجوز للناقد ان يفرض فهمه على القراء وخاصة اذا كان كشف هذه الرموز يعرض الكاتب لما لا تحمد عقباه

وجدت امين غراب يكلم العالم بشأن المقالة وسمعت طرفاً من الحديث وسمعت العالم يقول «انني لم أقل شيئاً » فتملكني الغيظ وتدخلت

في النقاش فارضا نفسي لأقول «انك لم تفعل شيئاً الا ما يودي بالشرقاوي الى المشنقة .. بسيطة » واخذ العالم ولم يجب .

وكانت ليلى رستم هي التي تقدم البرنامج في التلفزيون فمن المعروف ان الذي يعد البرنامج يكون عادة من الادباء او الصحفيين اما مقدم البرنامج فيكون موظفاً في التلفزيون وكانت ليلى رستم هي الموظفة المختصة بتقديم هذا البرنامج واذا هي تقول لي على غير معرفة بيننا «انا حائرة ماذا افعل او اقول انني لم اقرأ لطه حسين غير عشر صفحات من كتاب الايام «فقلت لها: نصيحتي الا تتكلمي مطلقاً ... سنسأل وسيجيب هو فما الداعي لكلامك ، وان لم اكن نسيت حوار الحلقة فاعتقد ان الاستاذة ليلى [illegible]

لكل من شاهد هذه الحلقة الا ان
[illegible] الدكتور طه انه قال لانيس «اننا لم نتفق على ان تأتي بحسره [illegible]ساب .. لقد قلت ثلاثة» ولوعرفوا ثورة السيدة حرمه والمرض الذي كان قد بدأ يعانيه في هذه الأيام لمهدوا له العذر

وفي الحلقة ثار تساؤل: من يمثل الشباب فيها فقال امين غراب ان ثروت هو اصغر الموجودين وقد كنت كذلك فعلا ومن عادتي اذا دافعت عن رأي ان ابدو وكأنني غاضب وان لم أكن كذلك وقد احببت ان ادفع رأيا قيل من ان الدكتور طه لا يهتم بالادباء الشبان فتكلمت بشيء من الحدة مبيناً ان الدكتور طه يحتضن الادباء الشبان ويشجعهم تشجيعاً لا يجدونه عند اديب كبير آخر . ويبدو ان الاستاذ يوسف السباعي ظن انني غاضب لأنني احتسبت من الادباء الشبان فقال في ابتسامته العذبة :

— انت زعلت علشان قالوا عليك شاب .... حد يطول

وعلم الله لم ازعل ولم افكر في الزعل ولكن هي حدتي في الدفاع التي لم استطع التخلص منها حتى اليوم .

وقبل ان اغادر هذا الفصل يطيب لي ان اروي ابياتاً كان يطالعني بها كلما ابطأت في زيارته .. كان يقول

ان كنت ازمعت على هجرنا   من غير ما ذنب فصبر جميل
وان تبدلت بنا غيرنا   فحسبنا الله ونعم الوكيل

كم كنت اخجل حين اسمعه يبدأني بهذه الابيات . وكم أدرك الآن مقدار التقصير الذي كنت اقع فيه عندما اتأخر عن زيارته . وهو تقصير في حق نفسي فقد كنت أحسب أن المنية لن تعجل اليه هكذا وشيكا ... وقد كنت أحسب انه سيعبر المائة من عمره بمأكله الهين الذي لا يكاد يقيم الأود وبنفسه الهادئة المطمئنة لا يصيبها هلع او قلق . ولكن يبدو أن الأيام ... ايامه التي رواها قد انتهبت من الشجرة في نبتها الأول ما جعلها صوحت حين أصبحت دوحة .. أترى هل آن لي اليوم ان اقول له :

ان كنت ازمعت على هجرنا   من غير ما ذنب فصبر جميل
وان تبدلت بنا غيرنا   فحسبنا الله ونعم الوكيل

(٣)

شارك طه حسين في الحياة الأدبية منذ وهب نفسه للأدب واعتبر نفسه مسؤولا امام الرأي العام الأدبي . فهو لا يترك عملا ذا قيمة دون ان يعلق عليه ويبدي فيه رأيه . فهو منذ اواخر العشرينات إلى ان اختاره الله مشغول

باعمال الآخرين لا يصرفه عنها شيء . كتب عن « أهل الكهف » لاستاذنا توفيق الحكيم ، واعتبر مسرح الحكيم هو بداية المسرح العربي .

وكتب بعد ذلك عن كل عمل ادبي يرى انه يستحق ان ينوه به . فهو يكتب عن ابناء جيله وعن الجيل الذي يليه وعن الجيل الذي تلا جيله .

ولما كنت متفقاً معك انني لا اقدم كتاباً منهجياً فانني سأكتفي بان اقدم بعض امثلة مما كتبه في هذا المضمار .

فلتنظر مثلا إلى ما كتبه عن زميله الدكتور محمد حسين هيكل حين نشر روايته الاخيرة « هكذا خلقت » . ومن المعروف طبعاً ان الرواية المصرية ولدت على يد استاذنا الدكتور هيكل بخالدته « زينب » .

لست أدري أأهنىء صديقنا الدكتور محمد حسين هيكل برجوعه إلى القصة ام اهنىء القصة برجوعه اليها ، ولكني اعلم ان قراء الأدب النقي الصفو هم الجديرون بالتهنئة فقد اتاحت لهم عودة هيكل إلى القصة بعد ان كان من السابقين اليها وبعد ان هجرها هجراً طويلا غير جميل اتاحت لهم كتاباً رائعاً جديراً ان يقرأ وان يقرأ في اناة ومهل ، وجديراً حين يقرأ ان يملك قارئه امره كله ووقته كله وملكاته كلها ايضاً .

فهيكل بارع في هذه القصة لا يتحدث فيها إلى القلب والشعور وحدهما ولا يتحدث فيها إلى العقل وحده ؛ ولكنه يتحدث إلى هذه الملكات كلها هي وملكات اخرى غيرها ، يتحدث إلى السمع بهذا اللفظ السهل العذب النقي البريء من التبذل والابتذال جميعاً ، والبريء مع ذلك من التعقيد والتكلف ومن هذا التصنع البغيض الذي ما زال بعض الناس يشغفون به ويتورطون ويورطون غيرهم فيه ؛ ويتحدث إلى البعض بهذه الاوصاف

البارعة لنجوم السماء حين ترسل سهامها المضيئة إلى الأرض وللشمس حين تغرب فتملأ كل شيء روعة وجمالا وتأخذ على الناظرين اليها ابصارهم وعقولهم واذواقهم جميعاً وللقمر حين يلقي ضوءه الهادىء المطمئن على النيل وعلى البحر وعلى الصحراء وعلى قمم الجبال وسفوحها .

وهو يتحدث إلى الضمير حين يقيس اعمال الناس بما فيها من خير وشر وبما فيها من احسان إلى الناس او اساءة اليهم وبما فيها من ارضاء للعقل وللشعور الديني مجتمعين او متفرقين وهو من اجل هذه الاحاديث كلها لا يشغل بعض ملكات قارئه وانما يشغل ملكاته جميعاً ؛ وهو من هذه الناحية مريح للقارىء ومتعب معاً ، يريحه لانه لا يشغل بعض ملكاته عن بعضها الآخر ويتعبه لانه يأخذ القارىء فلا يذره إلى نفسه وإلى ما يحيط به من ظروف وإلى ما يدعوه من شؤون الحياة الا بعد ان يفرغ من قصته .

وقد قلت انه يتحدث إلى القلب والشعور واي حديث اقرب إلى القلب والشعور من حديث الحب هذا الذي يشقى به صاحبه لما يثير في نفسه من الاهواء المتناقضة والعواطف المختلطة ويشقى به غيره لما ينغص عليه من بياض ايامه وما يؤرق عليه من سواد لياليه .

ويشقي القارىء نفسه لما يضطره اليه من العناء كل العناء حين يريد ان يهتدي في هذه الخصومات الملتوية العنيفة بين الوان العواطف وضروب الشعور . وقلت انه يتحدث إلى العقل واي حديث إلى العقل اكثر متاعاً من حديث هذه القيم الكثيرة لاعمال الناس وملاءمتها للحق مرة ومخالفتها له مرة اخرى . وموافقتها للعدل حيناً وانحرافها عنه حيناً آخر وائتلافها مع القصد في اول النهار واندفاعها إلى الجور المسرف في آخره واضطرابها هذا المتصل وتأثيرها بهذا الاضطراب في آراء الناس واحكامهم فيما يكون بينهم من الصلات بل فيما يكون بينهم وبين نفوسهم من صلات . وقلت انه يتحدث إلى الضمير واي حديث إلى الضمير ادق وانفذ وأمض في الوقت نفسه من محاسبة الانسان

لنفسه في كل لحظة من لحظات حياته وتقدير الانسان لكل عمل من اعماله وكل لفظ من الفاظه ، وبما يمكن ان يكون لهذا اللفظ او لهذا العمل من اثر حسن او سيء قوي او ضعيف في نفوس غيره من الناس ، واي حديث إلى الضمير ادق وانفذ من حديث الدين حين يتخذه الانسان مقياساً لكل ما يصدر عنه من قول او فعل ولكل ما يضطرب في نفسه من تفكير او شعور . كل هذا تجده في الكتاب فتنعم به وتشقى به ايضاً ، تنعم به لانه يمتصلك وتشقى به لانه لا يخرجك من حيرة الا ليدخلك في حيرة اخرى ، ولأنه يضطرك إلى ان تكون مشاركاً لاشخاصه حين يرضون وحين يسخطون وحين يثورون وحين يهدأون . ثم لا يعفيك الدكتور هيكل من ان تشرف من قرب على محاسبة هؤلاء الناس لانفسهم واحتكامهم إلى ضمائرهم فترضى عنهم مرة وتسخط عليهم مرة اخرى وتوافقهم الآن لتخالفهم بعد حين وتعطف عليهم في هذه الصفحة من صفحات الكتاب لتصب عليهم نقمتك بعد صفحتين او صفحات واي غرابة في ذلك وقد قلت لك ان هذا الكتاب متعب مريح ومسعد مشق، وممتع مثير .

كانت تلك هي المقدمة التي مهد بها الدكتور طه لنقد رواية « هكذا خلقت » للدكتور هيكل، ثم هو يمضي بعد ذلك في تلخيص الرواية كما تعود ان يفعل . ذلك التلخيص الرائع الذي يحيط بالرواية يكاد لا يفلت منها شيئاً . وما احسبني في حاجة إلى الحديث عما يعانيه الملخص من جهد وخاصة اذا كان ذلك لعمل في رواية كان او مسرحية . وما اصعب هذا التلخيص اذا كان كاتب الرواية من اولئك الكتاب الجادين الذين يحاسبون انفسهم على كل كلمة او حركة يرسمون بها عملهم. فلنمض قليلا مع هذا النقد لنرى كيف انهى الدكتور طه نقده بعد ان أبدى بعض ملحوظاته على الرواية .

« وملاحظة اخيرة اذكرها ولا اقف عندها وهي ان صديقي هيكلا لم يرد ان يخلف ظني به فيما يظهر فقد كنت اغيظه ايام الشباب بانه يهمل الاحتياط للغته العربية بين حين وحين وكان يرد علي باني انا لا أحسن العربية

ولا أجيد كتابتها وهو قد وفى بحقي عليه فانه يهمل في غير موضع حق اللغة ليتيح لي ان اذكره بأيام الشباب ، ومن يدري لعله يحمل هذا الاهمال على خطأ المطبعة وتقصير المصححين وما اكثر ما يحمل على المطابع والمصححين وهو على كل حال لا يستطيع ان يحمل على المطبعة ولا على المصححين اسرافه في استعمال اسم الاشارة الذي طالما عبثت به من اجله لاني اراه منافراً بعض الشيء للذوق المصري الحديث وهو هاتيك ، وما اكثر هاتيك في قصة هيكل ، ولو قد وضع مكانها هذه او تلك لكان له في احدى هاتين الكلمتين مقنع وغناء .

أما بعد فكل هذه الملاحظات لا تنقص من قدر الكتاب ولا تنقص من قيمته الفنية ولا تزهد محباً للفن ومشغوفاً بالأدب الجديد بهذا الاسم في ان يقرأه حفياً به حريصاً على الاستمتاع بدقائقه ، والشيء الذي استطيع ان اؤكده مطمئناً هو ان قارىء هذا الكتاب لن يفرغ من قراءته الا راضياً مغتبطاً راجياً ان يمتعه هيكل بين حين وحين بقصة تشبه هذه القصة . »

وبهذا ينهي الدكتور طه نقده لرواية «هكذا خلقت» ، الا تريد ان نلقي نظرة مرة اخرى على ما نقلته اليك لنرى معاً كيف كان النقد عند العميد فناً باذخاً لا يدانيه فيه احد من ناقدينا . فانه يندر بين نقادنا من يمارس هذا الفن الذي يعتبر ركناً هاماً في عالم الأدب بضمير حر خالص من مختلف انواع التأثر الشخصي . وخير هؤلاء – على سوئه – من يتعصب لأيديولوجية معينة . اما الغالبية الكاثرة فتقيم اسس نقدها على الاحقاد الشخصية .

ولعل عملي في الميدان الأدبي يتيح لي ان اقدم بعض الامثلة لتشهد بنفسك كيف اصبح النقد عندنا قائماً على اي شيء غير الضمير .

كنت مرة جالساً إلى بعض الاصدقاء وكان معنا الدكتور لويس عوض . ويبدو ان الدكتور لويس كان قد افرط في الشراب بعض الشيء فواتته

نوبة من الصراحة العجيبة فاذا هو يقول لي دون اي مقدمات « اتعرف لماذا لا نكتب عنك »؟ ودون ان ادري ما تعنيه نون الجمع هنا ودون ان افكر فيما اذا كان قد اصطنعها للتعظيم ام لتشمل قوماً بذاتهم يعنيهم. قلت « لا »، قال « لأن طه حسين كتب عن اول كتاب لك ... اتراك ولدت عملاقاً مثل التلفزيون؟ » وعلت الحاضرين وجمة، وسكت. ولم اشأ ان اناقش ولم اشأ ايضاً ان اقول ان الكلمة الواحدة من اي مقال لطه حسين عني تعدل كل ما كتبه لويس عوض فيما مضى من حياته وفيما هو آت منها. فقد خشيت ان يظن اي رد مني يحمل معنى الغيظ او الغضب انه لا يكتب عني. فأنا من هؤلاء الذين يؤمنون ان الفنان لا يحتاج إلى وسيط عند الجمهور، فالفنان بفنه فقط ولعل الدليل على ذلك انني ما زلت اعيش في الحياة الادبية على الرغم من ان الدكتور لويس ومن عناهم بنون الجماعة اذا لم يكن يعني تعظيم نفسه — وهو بهذا خليق — لا يكتبون عني فان فعلوا هاجموا.

ولنفس الدكتور حكاية اخرى فقد كتب مرة مقالتين عن المقارنة بين شوقي وعزيز اباظه، وكانت المقالة الأولى موضوعية إلى حد ما، وأما المقالة الثانية فقد كانت هجوماً لا يتصل بالموضوعية بسبب، وحدث ان لقيته بعد مقالته الثانية فاذا هو يقول « لقد كانت المقالة الثانية عنيفة لانني خشيت ان يظن الناس انني اسوي بين شوقي وعزيز » وفي هذه المرة أجبت « عليك ان تعلم يادكتور ان رأيك هذا بالنسبة إلى شاعر مثل عزيز اباظه لا يزيد عن كونه رأي فرد في شاعر يعتبر اكبر شعراء جيله أردت ام ابيت » وكم اسفت انني لم اقل له: ان السبب الحقيقي في هجومك على عزيز اباظه هو انه رجل اتخذ من التاريخ العربي مسرحاً لأغلب رواياته ومن الكلمة العربية اساساً لجميع شعره. وكم اسفت انني لم اقل له ان عزيز اباظه خالد مهما تحاول النيل منه اما انت فلم يظهر لك بعد شيء سيبقي اسمك في عالم الأدب العربي.

اما الدكتور لويس وموقفه من نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم فهو ايضاً موقف كان من شأنه ان يدعو إلى الدهشة لولا انه صادر عن الدكتور

لويس عوض فقد كان يغدق عليهما المديح في الجرائد المصرية ويكيل لهما الثناء ، حتى اذا فصل عن العالم العربي وذهب إلى امريكا ، اباح للناس دخيلة نفسه ، فهاجم الكاتبين العملاقين هجوماً اوشك ان اقول فاحشاً فقد تخطى النقد الأدبي الفني إلى المساس بضميرهما الوطني والفني جميعاً .

والدكتور لويس — في الواقع — يتمتع بكمية من الرضاء عن النفس يغبط عليها ، فقد حدث مرة ان كنت جالساً معه ، وجاء ذكر السينما وفهمت خطأ ان له رواية ستنتج في السينما المصرية فسألته لاتأكد انني لم اخطىء الفهم « ألك رواية ستنتج في السينما » فاذا هو يقول في ثقة مطمئنة « لا ان رواياتي لن تنتج الا في هوليود » ، وسكت طبعاً لم احر جواباً وقد مر على هذا الحديث عشر سنوات ونيف ولا ادري بعد ماذا كتب الدكتور لويس في عالم الرواية ولكنني واثق ان هوليود لم تنتج له شيئاً إلى الآن .

هذا ناقد . وناقد آخر اراه احقر من ان اذكر اسمه .. هاجمني مرة وإلى هنا لا بأس عليه . ولكنني صدمت حين توليت العمل بمجلة القصة بهذا الناقد يأتي إلي معتذراً عن نقده قائلا انه لم يفهم ادبي حق الفهم وانه يريد ان يصلح خطأه بان يكتب نقداً لرواية لي كانت قد ظهرت في هذه الايام وهو يستأذنني ان انشر النقد بالمجلة « فقلت له ببساطة » انك تستطيع ان تنشر بالمجلة اي شيء تريد الا ان تنقد كتاباً لي فلست سخيفاً إلى درجة ان افسح صفحات في مجلة اعمل بها لمديحي » .

وحدث ان اختار بعض الكتاب الشباب قصة قصيرة لي ضموها إلى مجموعة قصصية تضم اعمالهم إلى اعمال كتاب آخرين ممن تجاوزوهم في السن . وقد اختارت هذه الجماعة ذلك الناقد ليعلق على القصص المنشورة فراح يكيل لي المديح . فعجبت ، ومضت الايام وسافر هذا الناقد إلى لبنان فاذا بي اسمع انه يهاجمني هناك هجوماً مراً .

وهذا ناقد . وناقد آخر نشب بينه وبين المرحوم محمد عبد الحليم عبدالله خلاف فاذا هو يقول لي « طيب يا عبد الحليم هو انت مش حتكتب روايات بعد كده والله لأوريلك » .

ولك وحدك ان تقدر مقدار الحق في نقد صدر قبل ان يصدر العمل الذي ينقده وهكذا ترى ان الجمهور على حق حين تنعدم ثقته بالنقاد فهم في واد والجمهور في واد آخر والعجيب ان هؤلاء النقاد جميعاً اما تلامذة للدكتور طه او هم من اجيال لاحقة به ولكن يبدو ان النفوس ان كانت مريضة فلا أدب يفيد ولا أديب كما يقولون ولكن هذا لا يمنع ما دمت قد قدمت هذا الحديث عن النقاد ان اذكر آخرين قلة جديرين بكل تقدير واكبار ومنهم على سبيل المثال الدكتور شكري عياد والدكتور علي الراعي ولعل هناك آخرين لا تسعفني الذاكرة باسمائهم الآن .

عودا بنا إلى ذلك الحديث العذب الذي استقبل به الدكتور طه عمل زميله وصديق عمره الدكتور هيكل . اتراك لمست الانصاف في الحديث؟ فهو يمتدح العمل في موضوعية واصالة مبيناً ما يدعوه إلى هذا المديح ثم هو يداعب الدكتور هيكل مداعبة الأخ لأخيه ولا يعدو مع ذلك الحقيقة التي يرتئيها من ان الدكتور هيكل لا يعنى باللغة العناية التي ترضي الدكتور طه . ويأبى ضمير الدكتور طه الأدبي ان يعدو هذه الملاحظة ويصر ان يثبتها في نقده على رغم الصداقة الوطيدة التي تصله بالدكتور هيكل وعلى الرغم من معرفته التامة بمكانة الدكتور هيكل الادبية في مصر وفي العالم العربي اجمع ، بل والدكتور طه يعلم ايضاً اي شخصية ضخمة هو الدكتور هيكل بين عمالقة جيله . ولكن شيئاً من هذا لم يمنع الدكتور طه ان يقول رأيه بصراحة ووضوح وبرقة ايضاً وكياسة بالغتين .

وننتقل إلى نقد آخر للدكتور طه . ولنر ماذا قال عن خالدة نجيب محفوظ « بين القصرين » كان عنوان المقال « بين القصرين — قصة رائعة للاستاذ

نجيب محفوظ » ثم يبدأ المقال هكذا « فقد اتيح له في هذه القصة الرائعة البارعة نجاح ما أرى انه اتيح مثله منذ اخذ المصريون ينشئون القصص في اول هذا القرن . ولكن الأدب المعاصر كغيره من الآداب على اختلاف عصورها وكغيره من الانتاج العقلي . شيء نفهمه نحن ولا يفهمنا ونقدره نحن ولا يقدرنا ونشعر نحن بما يتاح له من نجح وما يفرض عليه من اخفاق ولا يشعر هو برضانا عنه او سخطنا عليه .

فلأقدم تهنئتي اذن كأصدق واعمق ما تكون التهنئة إلى كاتبنا الأديب البارع نجيب محفوظ ولأقدمها اليه بلا تحفظ ولا تحرج فهو جدير بها حقاً لانه اتاح للقصة ان تبلغ من الاتقان والروعة ومن العمق والدقة ومن التأثير الذي يشبه السحر ما لم يتحه لها كاتب مصري قبله .

وما أشك في ان قصته هذه « بين القصرين » تثبت للموازنة مع ما شئت من كتاب القصص العالميين في اي لغة من اللغات التي يقرأها الناس .

وما رأيك في قصة تتجاوز صفحاتها المئات الاربع وتقرأها منذ تبدأ إلى ان تنتهي فلا تحس بها ضعفاً ولا تشعر فيها بفتور في اي موقف من مواقفها ولا تثير فيك احساساً بان الكاتب على اطالته قد ادركه شيء من الاعياء او اصابه شيء من التراخي او ناله ما ينال الكتاب المطولين من هذا الجهد الذي يدعو إلى شيء من الراحة والتنفس في ذلك .

بل ما رأيك في قصة تتجاوز صفحاتها المئات الأربع وتقرأها انت فلا تشعر في أي وقت من اوقات القراءة بالحاجة إلى ان تستريح منها إلى غيرها من الكتب أو تستريح من القراءة إلى غيرها من ألوان العمل وانما يتجدد نشاطك إلى المضي في قراءتها دون ان يجد الملل او السأم او الضعف او الفتور إلى نفسك سبيلا . وانت جدير ان تأخذ في قراءتها فلا تدعها حتى تتمها لولا ان ظروف الحياة تحول بينك وبين ما يجب من ذلك وتضطرك إلى الوقوف

لتأتي عملا لا تستطيع تأجيله او تقرأ شيئاً لا سبيل إلى ارجاء قراءته .

ثم انت لا تكاد تفرغ من هذا العمل الذي صرفك عنها حتى تعود اليها مدفوعاً إلى هذه العودة دفعاً لا تستطيع مقاومته ولا الامتناع عليه .

بل انت لا تفرغ من هذه القصة لتنصرف عنها إلى غيرها من فنون القراءة والوان العمل وانما انت مضطر إلى ان تفكر فيها تفكيراً طويلا متصلا، وربما اخذت فيما يجب ان تأخذ فيه من اعمالك وقراءاتك واضطربت فيما يجب أن تضطرب فيه من شؤون الحياة ولكنك ترى نفسك بين حين وحين مضطراً الى ان تعود إلى التفكير فيها والاعجاب بها والثناء عليها بينك وبين نفسك والتحدث عنها إلى الناس حين تلقى الناس .

تقف بعقلك وقلبك عند هذا الموطن من مواطنها او هذه الصورة من صورها فلا تكاد تتحول عنه الا لتقف عند موطن آخر او صورة اخرى .

وقد يمضي الوقت الطويل بعد فراغك من قراءتها واذا انت على ذلك تعود اليها فترى انك لم تنس منها شيئاً لأن قراءتك الأولى لها قد ثبتت احداثها وصورها واحاديثها في نفسك تثبيتاً .

بهذا كله شعرت انا وبهذا كله شعر غيري من القلة الذين لقيتهم وتحدثت اليهم عنها فاذا هم قد قرأوها وتأثروا بها كما تأثرت وقدروها كما قدرتها واحسوا روعتها مثلما احسست والحت على عقولهم وقلوبهم كما الحت على عقلي وقلبي .

ومصدر هذا كله فيما ارى ان الكاتب يحقق في هذه القصة تحقيقاً رائعاً خصلتين يبلغ بهما الأثر الأدبي اقصى ما يقدر له من النجاح وهما الوحدة التي لا تغيب عنك لحظة والتنوع الذي يذود عنك السأم، ويخيل اليك انك تحيا

حياة خصبة حافلة مختلفة المظاهر والمناظر والاحداث .

فانت تتنقل في كل هذه المظاهر والمناظر والاحداث لا كما يتنقل المتنزه في بستان يختلف فيه الزهر والثمر والشجر بل كما يتنقل الانسان في حياة مضطربة لا يمر يوم من ايامها او ساعة من ساعاتها الا لقيه فيها حدث من الاحداث يرضيه احياناً ويسخطه احياناً ويثيره مرة ويرده إلى الهدوء مرة اخرى.

أرأيت كيف يكتب الاستاذ الكبير عن عمل كبير؟ لقد مدح ولم يتأستذ وقدم اعجابه صريحاً نقياً واضحاً متدفقاً لانه طه حسين . ولأنه طه حسين لا يستكبر ان يقول: فقد اتيح له في هذه القصة الرائعة البارعة نجاح ما ارى انه اتيح مثله منذ اخذ المصريون ينشئون القصص في اول هذا القرن . وطه حسين من اول من انشأوا القصة المصرية في اول هذا القرن . ولكنه العملاق الضخم الراسخ القدم الوطيد الثقة بنفسه المترفع عن الصغار يعلن في هدوء ووضوح وابانة ان كاتباً قبل نجيب محفوظ لم يتح له ما اتيح لنجيب من نجاح .

ثم أرأيت كيف يتكلم الدكتور طه في صراحة وصدق عن صلتنا بالأدب الحديث على الرغم من ان كتباً كثيرة له ترجمت إلى لغات اجنبية ولكنه يعلم اننا نحن الأدباء العرب منفصلون عن الأدب المعاصر فنحن نفهمه وهو لا يفهمنا ونحن نقدره وهو لا يقدرنا ونحن نشعر بما يتاح له من نجح وما يفرض عليه من اخفاق ولا يشعر هو برضانا عنه او سخطنا عليه .

ثم لننتقل إلى اديب آخر وموقف العميد منه . وليكن اديبنا يوسف السباعي ولننظر معاً موقف الدكتور طه منه . ولعل يوسف السباعي من اكثر ادبائنا اثارة للجدل حوله .

فانت تجد المتحمسين له الذين يقرأون كل ما يكتبه في شغف واستمتاع ، وفي نفس الوقت تجد النقاد وبعضاً منهم بصفة خاصة يلوون عنه اعناقهم

في صلف وتكبر، وهو يوسف السباعي يمضي في طريقه سعيداً بهؤلاء الذين يقرأون له ويستمتعون منه في مصر وفي العالم العربي اجمع . غير حافل في الوقت نفسه بهؤلاء المشقشقين من النقاد الذين يحبون ان يظهروا مبلغ ثقافتهم بالغض من شأنه او اهمال اعماله بينما الاعمال تشق طريقها إلى القراء غير آبهة برأي هؤلاء النقاد، ومن يدري لعل هؤلاء النقاد وكره الجمهور لهم يجعل اعمال يوسف اكثر قبولا عند القراء ويجعل القراء اكثر شغفاً بها .

كتب الدكتور طه عن اربع روايات ومسرحية ليوسف السباعي . وله في كل رواية من هاته الروايات رأي بطبيعة الحال ولكن رأيه في يوسف السباعي يوشك ان يكون واحداً لم يتغير في اي من هذه المقالات .

فنجده يقول مثلا عن رواية طريق العودة :

« قصة رائعة باوسع معاني هذه الكلمة وادقها . وما اعرف اني قرأت للاستاذ يوسف السباعي بعد قصته البارعة السقامات شيئاً يشبه هذه القصة في روعتها واتقانها وامتاعها . والغريب في امرها انها تبدأ هادئة مطمئنة وحديثاً مألوفاً لا يؤذن بشيء من جودة فضلا عن الروعة . واعترف باني مضيت في قراءة الفصول الاولى منها كسلا او أشبه شيء بالكسل وربما نازعتني نفسي إلى الاعراض عنها والاخذ في شيء انفع منها واشد امتاعاً . ولكني عودت نفسي اذا بدأت كتاباً أن اتمه مهما تكن الصوارف عنه والمزهدات فيه فلا احكم على الأثر الأدبي بجزء منه وانما استقصيه من اوله إلى آخره قبل ان اقول فيه شيئاً او اصدر عليه حكماً .

وقد مضيت في الكتاب واستقصيته فحمدت الكرى حين اصبحت وأصطنع هذه الجملة عن عمد لاني كنت اقرأ هذه القصة ليلا واتممتها ذات يوم حين ارتفع الضحى، واشهد لقد قرأتها مرتين اعجاباً بها ورضى عنها .

والغريب من امرها ايضاً انها خلت او كادت تخلو من الخطأ المروع في اللغة العربية وهذا نادر فيما يكتبه صاحبها . »

احب ان اقف قليلا بعد هذه الفقرة لاحكي لك عن نقاد شهدتهم يذهبون إلى التسجيل في الاذاعة ليناقشوا اعمالا لم يقرأوا منها شيئاً او قرأوا بضعة اجزاء متناثرة وقصدوا إلى الاذاعة ليسجلوا رأيهم وليوقعوا استمارة الصرف .

اما طه حسين فقد اخذ نفسه اذا بدأ كتاباً ان يتمه ولا يحكم على الاثر الأدبي بجزء منه وانما يستقصيه من اوله إلى آخره قبل ان يقول فيه شيئاً او يصدر عليه حكماً. بل كثيراً ما يقرأ العمل مرتين ولا يجد غضاضة أن يقول هذا . وهكذا اصبح طه حسين طه حسين وهكذا سيظل النقاد الآخرون في وادي الخمول والهزل والهزال إلى ابد الآبدين ؟

نعود إلى طه حسين ويوسف السباعي . فالدكتور طه يرى ان يوسف السباعي من ابرع القصاصين ومن اكثرهم جاذبية للقارىء ويرى في اسلوبه انه اخاذ يتسم بخفة الظل والرشاقة .

واسلوب القصة مختلف فيه الفكاهة الحلوة التي تصور خفة روح الكاتب حين يصف الدعابة والعربدة والمجون وفيه الجد الرقيق الذي يصور الحب الناشىء ونقاءه ونزاع النفوس إلى اهوائها وضبط الضمائر لهذه الاهواء .

وفيه الدعابة المرحة التي تصور وداعة الاطفال ونقاء نفوسهم وسذاجة اعمالهم واقوالهم، وفيه بعد ذلك كله هذا الجد المر الذي تنخلع له القلوب وتضطرب له الضمائر اشد الاضطراب .

ولكن الدكتور العميد يأخذ على يوسف دائماً عدم اهتمامه باللغة فتجده يشير إلى ذلك اشارة عابرة في هذا النقد لرواية طريق العودة ولكنه يبلور

هذا الرأي بعنف في مقالته عن رواية « اني راحلة » ثم هو يعود إلى هذا الرأي مرة اخرى بصورة لعلها اخف وقعاً وايسر قسوة في مقالته عن رواية « ليل له آخر » .

« واذا لم يكن بد من النقد وشيء من القسوة على الكاتب فلأكتف بالأسف الشديد على ما في القصة من هنات تتصل باللغة والنحو ، وهذه الصفات مبثوثة في القصة كلها لا تملؤها لحسن الحظ ولكنها تظهر فيها بين حين وحين فيضيق بها القارىء ويأسف لها اشد الأسف اذا كان هذا القارىء يشاركني الحرص على اللغة العربية الفصحى ... والضيق بكل ما يسوءها قل او كثر ، وما اكثر ما رجوت من الكاتب الصديق ان يتحقق او يعرض قصته قبل ان تنشر على من يحقق له سلامتها وبراءتها من كل خطأ عربي . »

وهكذا لم تستطع الصداقة الوطيدة التي تقوم بين الدكتور طه ويوسف ان تعفي كاتبنا من نقد الدكتور طه له حين يتصل الأمر بشأن اللغة . ولم يستطع الاخلاص الذي يكنه يوسف ويبديه للدكتور طه في كل مناسبة ان يكف قلم الدكتور طه عن مؤاخذته على عدم اهتمامه باللغة . بل لم يستطع اعجاب الدكتور طه بالفن الروائي عند يوسف ان يعفي هذه الروايات من هجوم الدكتور طه فيما يتصل باللغة . انه الاستاذ الاصيل الذي يحاسب نفسه على رأيه الأدبي اولا وقبل أي معنى آخر .

وحين يكتب الدكتور طه حسين عن « دموع ابليس » للاستاذ فتحي رضوان يبدي رأيه في جفاف الرواية باسلوب رائع اخاذ .

« وانت تقرأ القصة فلا تجد فيها رمزاً ولا ايماء وانما تجد فيها تصريحاً واضحاً كل الوضوح منذ تبدأ القصة إلى ان تفرغ منها فالاشياء مسماة باسمائها والاشخاص مسمون باسمائهم والاحداث تقع في ارض يسكنها الناس ويشقون فيها ويسعدون ويحسنون فيها ويسيئون وانت تستطيع ان تضع هذه الارض

حيث شئت من بلاد الله .

تستطيع ان تتخيلها في مصر لان الاسماء امامك كلها عربية ولان البيئة تشبه بيئتنا المصرية في القرى وتستطيع ان تتخيلها بلداً آخر لان الشقاء والسعادة والغنى والفقر والنعيم والبؤس كل ذلك يعرض للناس حيث يكونون . ومع ذلك فانت تشعر اثناء القراءة بان احداث القصة تقع في عالم آخر قريب من الارض ولكنه بعيد عنها يوشك ان يكون فيها لولا ان هؤلاء الاشخاص الذين يذهبون ويجيئون ويختصمون ويتفقون يحيط بهم شيء من الغرابة يدنيهم منك وينئيهم عنك فهم بين بين . وهذا اول ما يرضيك عن هذه القصة لانه يخرجك من الاطوار المألوفة للناس دون ان يبعدك عنهم فانت حين تقرؤها توشك ان تكون في شيء يشبه الحلم وان كان ادنى إلى الحق منه إلى الحلم .

ولست ادري كيف يكون موقع هذه القصة من النظارة المصرية لو عرضت عليهم ممثلة تمثيلا متقناً كل الاتقان . ايصبرون عليها ام يقصرون عن المضي معها إلى آخرها .

ذلك ان القصة صارمة صرامة متصلة لا يكاد الضحك او الفكاهة يلمان بها الا قليلا وصرامتها تأتيها من ان كاتبها يفلسف كل شيء ويفلسف كل كلمة من كلماتها فموضوعها نفسه فلسفي وهو الصراع بين الخير والشر في حياة الانسان والشيطان جميعاً .

وحوارها فلسفي منذ يبدأ إلى ان ينتهي لا يعرض للطبيعة ولا لفلسفة العلم ولا يبعد عن الناس ولكنه قريب منهم عسير عليهم فهو تحليل دقيق صادق فيه كثير من الروعة ولكن هذه الروعة الصارمة التي لا تحب لعباً ولا تندراً .

ويمضي الدكتور العميد في تلخيص القصة ثم ينهي مقالته الرائعة .

« والقصة رائعة اللفظ قد كتبت في لغة عربية رائعة لولا هنات تعترضك هنا وهناك ولكنها قليلة الخطر وان كنت احب للكاتب ان يبرأ من امثالها . وانا بصدد ذلك اهنىء الكاتب باتقانه وامتاعه وما اشك في ان قراءه سيشاركونني في هذه التهنئة وفي تهنئته بشيء آخر وهو ان اعباء الوزراء لم تحل بينه وبين هذه اللحظات الخصبة التي يسعد فيها الانسان بالخلوة بين حين وحين إلى القلم والقرطاس .

لن استطيع ولعل غيري يستطيع ان يستقصي طه حسين الناقد واثره على الأدب العربي طول فترة نيفت على الخمسين عاماً . ولكني واثق انه ليس بين كتاب العربية قاطبة من لم يكن يطمع ان ينال كلمة رضى من طه حسين مكتوبة كانت هذه الكلمة او غير مكتوبة . وانا لا استثني من هؤلاء الأدباء احداً كبيراً ما كبر ذلك الأديب .

وانا ايضاً عاجز ان استقصي مواقف طه حسين عميد الأدباء العرب بالنسبة إلى الأدباء، وعاجز أن اتابع مواقفه كانسان كبير خاض الحياة مكفوف البصر فقيراً يخذله من كان يرجو منه العون فاذا هو يقف في دفاع الحياة يتحدى هذا الدفاع بغير سلاح الا ثقافته والا ثقته الوطيدة بذكائه وعقله واطمئنانه إلى موهبته الفنية الباذخة .

وينشىء اسلوبه هذا الذي اشتهر به والذي به يحطم قوالب الانشاء العربي ويندلع في الأدب العربي الحديث عملاقاً يستخدم اللفظ بعد ان كان الأدباء يخدمون اللفظ على حد قول سارتر ، ويختار من السياسيين ابعدهم عن عامة الناس، مؤثراً ان يكون مع المثقفين على ان يكون مع الذين يواكبون الجماهير ويتحسسون رغباتهم ويثبت وطائده على الأرض الصلبة فارضاً نفسه وثقافته على الاصدقاء والاعداء داعياً إلى حرية الفكر وحرية البحث داعياً إلى تحرير النفوس والعقول والعقائد من كبول التقاليد ومن ايدي المتزمتين ومن اعباء ما تواضع عليه الناس ، كل ذلك مع التزام تام بالحفاظ على اللغة والاخلاق وعلى ما يقبله العقل وتقبله النفس من التقاليد فثورته ثورة

ذات قانون فهي ثورة مثقفة يحكمها العقل وتحكمها الاخلاق وتدعو في ذات الوقت إلى الحرية، وتدور حوله او يديرها فاذا هو عنيف كأشد ما يكون العنف حين يتصل الامر بحرية انسان، يقف إلى جانبه، يؤازره على الطاغوت ويمكنه من حريته، وان كان في موقفه هذا خسران له وتلف لموارده او لمنصبه.

يدخل معه عبد الرحمن الشرقاوي في نقاش حول وظيفة الأدب ودور الأديب، ويرى الدكتور طه ان الأدب لا ينبغي له ان يوظف لاحداث الثورة الاجتماعية، وفي صيف ١٩٥٣ ينشر الشرقاوي مقالا في جريدة المصري يسأل فيه الدكتور طه حسين عن دوره في حماية حرية الفكر وهو الرائد الذي علم الذين اتوا من بعده كيف يدافع القلم عن الحرية، ويشيع في المقال عتب على الدكتور طه لانه لم يهاجم هؤلاء الاساتذة الامريكيين الذين جاؤوا إلى كلية الآداب ليدرسوا بها الانجليزية بدلا من الانجليز فاذا هم ينتهزون الفرصة ويقومون بما اعتبره الشرقاوي دعاية سياسية. ويغضب الدكتور طه من هذا العتب ويكتب رداً عنيفاً على مقال الشرقاوي ويتوجه بنفسه إلى جريدة المصري حاملا المقال. ويلقاه احمد ابو الفتح ويقرأ المقال فيجد الدكتور طه يهاجم الشرقاوي هجوماً قاسياً متهماً اياه انه يروج للفكر الاشتراكي الذي كان محرماً آنذاك ويقول احمد ابو الفتح للدكتور طه ان عبد الرحمن الشرقاوي مطلوب للمعتقل متهماً بالترويج لمبادىء هدامة في روايته الأرض التي كانت تنشر مسلسلة في المصري في ذلك الحين كما انه متهم بهذه التهمة ذاتها من واقع مقالاته التي كان يجادل بها الدكتور طه. وينفض الدكتور طه عن نفسه الغضب وينسى ان شاباً من ابنائه عتب عليه عتاباً بلغ به إلى هذا الغضب، ويعود الدكتور طه إلى طه حسين ابي الأدباء جميعاً فهو يسترد المقالة ويحذف منها كل ما يتضمن الهجوم الصريح على عبد الرحمن الشرقاوي ويكتب بدلا من فقرات الهجوم فقرات اخرى فيها تحية واطراء لعبد الرحمن الشرقاوي.

ذلك هو طه حسين الذي رضي ان يجعل نفسه غير متفهم لرواية هارب

من الايام ليحمي كاتبها من الطاغوت هو نفسه لم يتغير .

وفي يوم بينما كان الدكتور طه حسين مستشاراً لوزارة المعارف
عهد الوفد عام ١٩٤٢ يرسل اليه عبد الفتاح الشناوي المدرس وقتذاك ب
أهلية بالقاهرة خطاباً شديد اللهجة يهاجمه هجوماً قاسياً عنيفاً . وأذ
ان اوقف القصة هنا لاقدم اليكم عبد الفتاح الشناوي . انه من خريجي
العلوم وكان قبل تخرجه زعيم طلبة الاحرار الدستوريين بالكلية . وقد
ابي اول ما عرفه حين سمع وهو سكرتير عام حزب الاحرار الدست
ان البوليس يحاصر دار العلوم وان الطلبة لا تستطيع الخروج فقصد إلى
دار العلوم فوجد الشناوي في ملابسه الداخلية ممسكاً بخرطوم ماء ي
البوليس ان يدخلوا إلى الكلية . ومنذ ذلك الحين تعرف الشناوي إلى
فحين اختير وزيراً للمواصلات في وزارة احمد ماهر اختار الشناوي س
له ثم اصبح مديراً لمكتبه وقد لازمه طوال فترة بقائه في الوزارة وهي
امتدت خمس سنوات لم يتركه فيها الشناوي الا فترة لا تتجاوز
القلائل تلك التي قضاها وزيراً اصيلا للخارجية وحين ترك ابي ا
كان الشناوي في منصب مدير مكتب وزير الاوقاف وقد كانت آخر
تولاها ابي . وبقي في هذا المنصب فترة طويلة بعد ذلك .

وانا لم اعرف وما اظنني سأعرف وفياً في مثل وفاء عبد الفتاح ا
كما انني لم اعرف . وما اظنني سأعرف رجلا جريئاً في الحق وأخاً
ومعيناً على الدهر ومحباً للخير في غير تظاهر وبعيداً عن الشبهات ف
سماجة وقريباً إلى الله في غير تزمت مثل عبد الفتاح الشناوي .

وفي كتاب طه حسين احب ان اروي عن الشناوي قصة غير
تلك مع الدكتور لتعرف منها جانباً من جوانبه .

كان مديراً لمكتب احد الوزراء وجاء خطاب من مدير مكتب

الوزراء في ذلك الحين معنوناً باسم الوزير مباشرة فاذا الشناوي يطلب مدير مكتب رئيس الوزراء :

– حضرتك مدير مكتب رئيس الوزراء

– أيوه ... نعم

– حضرتك بعثت خطاباً إلى وزير الاوقاف بتوقيعك

– ايوه ... نعم

– هذا لا يجوز

– ايه هو الذي لا يجوز

– مدير المكتب يجب ان يبعث إلى مدير المكتب والوزير يبعث إلى الوزير حتى لو كان الوزير رئيس مجلس الوزراء

– انت عارف بتكلم مين

– نعم .. مدير مكتب رئيس مجلس الوزراء

– انا ....

وذكر المتحدث اسمه ومنصبه وهو اسم ومنصب تنخلع له الافئدة الثابتة في هاته الأيام ولكن الشناوي ظل على ثباته

– لا بأس .. منصبك هذا وضع آخر ولكنك هنا مدير مكتب رئيس الوزراء وانا اكلمك بهذه الصفة

– الله يلعن ابوك ابن كلب

– يلعن ابوك ابن ستين كلب

– انت ابن ...

لا يستطيع القلم ان يكتبها

ـــ انت ابن ستين ....

ما يزال القلم لا يستطيع ان يكتبها

ويقفل عبد الفتاح الشناوي التليفون ولم يكد حتى يناديه وزيره

ـــ انت عملت ايه

ـــ حافظت على كرامتك

ـــ وانا قلت لك حافظ لي عليها ... انا لا شأن لي .... مليش دعوة

ـــ وانا طلبت منك حاجة ... ملكش دعوة .... لا شأن لك انت

ويذهب الشناوي إلى منزله ينتظر القتل او يتفاءل وينتظر الاعتقال ولكن الليل يمر بسلام ويذهب الشناوي في صباح اليوم التالي إلى الوزارة ويدق عنده جرس التليفون

ـــ مين

ـــ اقول ولا تشتمني

ـــ انا لست قليل الأدب

ـــ انا .....

ويذكر اسمه الذي تنخلع له الافئدة الثابتة ويكمل حديثه

ـــ انا غلطان واعتذر .. هل يكفي هذا الاعتذار ام تريدني ان آتي إلى مكتبك لاعتذر اليك .

ـــ لا هذا يكفي وشكراً

وينتهي الحادث عند هذا وتمضي سنوات يلتقي فيها هذا الرجل الذي كانت تنخلع من هول اسمه الافئدة بابن اخ لعبد الفتاح الشناوي فيسأله

ان كان قريباً له فيقول انه عمه فيقول انه من الرجال القليلين الذين عرفهم في حياته ويروي هذه الواقعة على الجمع الذي كان حاضراً .

وبهذه الجرأة ارسل الشناوي إلى الدكتور طه حسين خطابه . وقد كانت تكفي الدكتور يومذاك مكالمة تليفونية للمدرسة حتى يجد الشناوي نفسه في اليوم التالي في الطريق العام بلا وظيفة ولكن شيئاً من هذا لا يحدث بل يحدث شيء آخر مختلف كل الاختلاف . يزور الدكتور محمد عبده عزام الاستاذ الشناوي ويفاتحه في الخطاب الذي ارسله إلى الدكتور طه حسين .

— وكيف عرف الدكتور طه صلتي بلك

— انني تلميذ له وهو يعرف انني من المطرية وقد ذكرت المطرية في خطابك وقد سألني عنك فقلت انك خريج دار العلوم وانك مدرس بالتعليم الحر ظناً مني ان هناك من يسعى لتعيينك بالمدارس الحكومية . واذا به يفاجئني بان يطلب من سكرتيره ان يريني الخطاب الذي ارسلته اليه . أهذا كلام ؟

— المقصود .... وماذا حصل

— ماذا حصل ... تهت ولم اجد شيئاً اقوله

— وهو

— سكت ملياً ثم قال لي يا عزام اريدك ان تحضر لي الشناوي حتى اعترف له شفاهاً بالحق فيما يأخذه عليّ من مآخذ وحتى اقول له ان كل ما جاء في خطابه هو الصدق بعينه اما ان ارد عليه كتابة فهذا لن يكون . وضحك ضحكة المنتصر على نفسه ان استطاع ان يتغلب على غضبه .

وأراد الدكتور عزام ان يصحب الشناوي إلى الدكتور طه فخجل

الشناوي ان يلقاه بعد هذا الهجوم وارسل اليه خطاباً يشكر له قبوله لنقده العنيف واحترامه لحرية الرأي . ومرت السنون وانتقل المغفور له الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق إلى رحمة الله وندب الزعيم المصري العظيم المغفور له عبد العزيز فهمي باشا عبد الفتاح الشناوي ليلقي كلمة عنه في حفل التأبين وهناك التقى بالدكتور طه وكان من خطباء الحفل وحين انتهى الشناوي من القاء كلمة عبد العزيز باشا فوجيء بسكرتير الدكتور طه يستدعيه اليه فاذا هو يبادره « يا شناوي المطرية دقهلية لقد ارسلت اليك محمد عبده عزام لتأتي إليّ حتى اعترف لك بصدق رسالتك ولكنك أبيت . وها قد تقابلنا اليوم من غير ميعاد وما دمت محل ثقة استاذنا عبد العزيز فهمي فاني يهمني ان أراك . »

فشكره الشناوي على تلطفه وسماحته . وظل خجلا ان يذهب اليه .

اذكر هذه القصة واذكر قصة اخرى لوزير أمر مدير مكتبه ان يحمل خطاباً إلى رئيس وزراء فاذا رئيس الوزراء يأمر بمدير المكتب أن ينتظر حتى يتسلم الرد واذا الرد يتمثل في القبض على مدير المكتب ... مدير المكتب وليس الوزير الذي كان قد أرسل خطاباً شديد اللهجة إلى رئيس الوزراء الطاغية .

واذكر قصة الشناوي فاعود واذكر ما كان بين الدكتور طه وعبد الرحمن الشرقاوي عام ١٩٦٢ حين دار حوار بينهما حول التجديد في الشعر . وكتب الدكتور طه مقالا عنيفاً يهاجم فيه المتأدبين من الشبان، وعاد عبد الرحمن يعتب على العميد اطلاق كلمة المتأدبين على الأدباء الشبان، فرد الدكتور طه بمقال اشد عنفاً اتهم فيه عبد الرحمن بانه يجهل اللغة العربية فالأديب والمتأدب بمعنى واحد ... ورد الشرقاوي بمقال يوضح للقراء المصدر الذي اعتمد عليه في اعتباره قيام فارق بين الكلمتين في المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي ورجا الدكتور طه ان يوضح للقراء المصدر الذي اعتمد عليه في اعتبار

الكلمتين بمعنى . فاذا بالدكتور طه يطلع على الشرقاوي وعلى القراء جميعاً بمقال يعتذر فيه عن هذا الخطأ قائلا « قرىء عليّ القاموس المحيط خطأ » .

انه هو طه حسين الذي عرف خطاب عمر بن الخطاب الشهير فاتخذه نبراساً له بان الرجوع إلى الحق خير من التمادي . وهو طه حسين الذي تجعله ثقته الوطيدة بنفسه يعترف بالخطأ . وما أرى اعترافه هذا الا ترفعاً عن الجدال فيما اتضح له صوابه .

وحين فصل الدكتور طه حسين من جريدة الجمهورية عام ١٩٦٤ وهو رئيس تحريرها يومذاك وكانت موجة التشتيت قد اجتاحت عشرات من محرريها وكتابها وراحت القرارات تلقي رؤوساً إلى الفصل واخرى إلى النقل لمؤسسات صناعية وتجارية، وكان طه حسين يومذاك في أشد الحاجة إلى مرتبه، وطلب اليه ان يرفع تظلماً على سبيل الشكل حتى يتاح له أن يعود إلى مكانه فرفض طه حسين قائلا « انا لا اقبل ان اعاد للعمل في صحيفة تعامل كتابها على نحو يدل على الجهل التام بدور الكاتب . »

وهكذا لم يكن غريباً ان يصبح اسم طه حسين علماً على الثقافة العربية لا في مصر والبلاد العربية وحدها بل في جميع بلاد العالم . وقد بلغ هذه المكانة لا بانتاجه الأدبي وحده ، وانتاجه بهذا خليق ، وانما بلغه بما يروى عنه من مواقف صلبة في الدفاع عن الثقافة والكتاب ودور الثقافة والكاتب في الحياة جميعاً .

كان طه حسين صديقاً للشاعر الفرنسي الكبير اراجون وكان اراجون قد تعود ان يزور طه حسين كلما عرف أنه في باريس . وذات صيف زار الدكتور طه باريس واقام بها بضعة ايام ولم يزره اراجون على الرغم من ان الدكتور طه ترك له رسالة بالمنزل تنبئه بمجيئه . وعرف احد المصريين من تلامذة طه حسين ان الدكتور طه عاتب على اراجون فابلغ اراجون بهذا

العتب فاذا باراجون يسارع إلى الدكتور طه ويعتذر له ان رسالته لم تبلغه ويخرج اراجون ليقول لكل من يلقاه من المصريين او العرب ان طه حسين كنز ضخم تعتز به الثقافة الانسانية لا الثقافة العربية وحدها .

ولعل اراجون عرف بموقف طه حسين من الثقافة الانسانية حين كان رئيساً لتحرير الجمهورية وكتب ابراهيم الورداني يهاجم الأدب اليوناني مرتثياً فيه انه أدب خرافات وعفاريت فاذا بطه حسين لا يكتفي بالرد وانما يهدد بالاستقالة — على حاجته للمرتب — اذا عادت الجمهورية إلى نشر هذا المستوى من المقالات .

وبعد فقد قلت لك منذ بدأنا السير معاً في طريق طه حسين ان الذي بيننا هو حديث مطلق حر لا قيد فيه عليّ ولا قيد عليك وانما أروي لك ما اذكره كما يقف الابن امام صورة أبيه يحكي لمن حوله ما كان بينهما من ذكريات . لا .. لن استطيع ان استقصي الذكريات جميعاً من مواقف طه حسين الشهيرة فما لهذا اصطحبنا انا وانت لنسير في هذا الطريق . وما اصطحبنا كذلك لندرس او نتدارس طه حسين فما انا بهذا ... وانك لواجد عند غيري ما تتوق اليه من دراسة وتدارس ان كنت إلى هذا تتوق . انما هو الحديث المطلق الحر فقد كان طيب الله مثواه يحب الحديث المطلق الحر يحب ان يقوله ويحب ان يسمعه . وكان ايضاً يحب من محدثه ان يدرك دائماً انه انما يحدث طه حسين . كانت تجلس اليه استاذة كبيرة من تلامذته وقالت في اثناء حديثها انها كانت في المصيف وفتحت ياء المصيف كما نقول الكلمة في حديثنا العادي واذا بالدكتور طه يقول :

— مصيف .... ؟

فاخذت الاستاذة الكبيرة واستدركت .

— آسفة اقصد مصيف .. لقد كنت القي الحديث ببساطة .

ويقول طه حسين في لهجة الاستاذ المدل على تلميذته

— وهل يتحدث إليّ أنا ببساطة ؟

ولم ير رحمه الله حمرة الخجل وهي تكسو وجهها .

كان مهيباً جليلا، رأيت استاذاً من كبار الاساتذة الأجلاء يجلس اليه ، وكان هذا الاستاذ معروفاً بتكبره وغطرسته واعتزازه بنفسه . ولكنه امام طه حسين كان يجلس وذراعاه متشابكتان على صدره لا يعفيهما من وضعهما هذا المتعب مهما تطل الجلسة وهو يعلم علم اليقين ان الدكتور لا يراه ولكن احترامه للدكتور كان نافذاً إلى ابعد اعماق نفسه فذراعاه متشابكتان .

وفي يوم كنت جالساً اليه، وكان معه استاذ جامعي من اكبر اساتذة الجامعة بل من ألمع شخصيات مصر . وكان معروفاً عن هذا الدكتور الجامعي انه عنيف مع تلاميذه عنفاً لا رحمة فيه ولا هوادة . ودار الحديث وقال الدكتور طه :

— لا نفس لي للأكل

— الواحد يأكل بضرسه لا بنفسه

واذا بالدكتور طه يقول في هدوء :

— ما هذه السخافة ؟

وذعرت ولكن الاستاذ الدكتور ضحك كأن اباه هو الذي يحادثه . هكذا كان هو منطلقاً بسيطاً قاسياً في أبوّة ، استاذاً في تلطف ، اباً للجميع يحب الجميع ان يكونوا ابناء .

لا سبيل مع الدكتور طه حسين ان تعامل اسمه او سيرته كما تعامل الأسماء الاخرى او السير .

فانني اعتقد ان اديبا ما لم تكتب سيرته بالتفصيل الذي كتبت به سيرة الدكتور طه ولو لم يكتب فيها الا خالده «الايام» لكان هذا حسبها وحسبه . ولكن الواقع ان الكثير قد كتب بعد ذلك فقد شغل الدكتور طه النقاد طيلة نصف قرن من الزمان او يزيد وقد كان الرجل من اكبر معالم ادبنا العربي ان شاء احد ان يقدم ادبنا العربي الى الغرب ولعلي لا اكون مبالغاً ان قلت: انه اكبر هذه المعالم واكثرها شمولاً واوسعها مجالا. فكان من المستحيل ان يتكلم شخص عن الادب العربي الحديث ولا يكون الدكتور طه في مقدمة هذا الحديث

فمن العبث اذن ان احاول التنويه بهذه السيرة . ولكنني في الواقع قد وقعت على عدد من مجلة الأدب التي كانت تصدرها جماعة الامناء برئاسة المرحوم الاستاذ الكبير امين الخولي . وقد اخذت مجلة الادب في عددها هذا جانباً لا أحسب ان مجلة اخرى اتجهت اليه فقد قدمت المجلة ما ليس مشهوراً عن طه حسين وما ليس مشهوراً من ادب طه حسين مقالات قديمة وقصائد لم تتداول وقد كنت خليقاً ان انقل اليك عدد المجلة جميعاً الا انني لا اتسم بالجرأة التي تتيح لي ان ابدأ بدعة لم تكن معروفة ولعل للتربية المحافظة التي احاطت بي منذ بدء حياتي اثراً في ذلك ولهذا فانا لا اجرؤ ان انقل اليك مواد العدد جميعاً ولكن لعلني التمس الجرأة فأقدم اليك بعض ما جاء في هذا العدد ولعل من الظريف ان اقدم اليك ما لم يذكره الدكتور طه في كتابه الايام من اسماء اقاربه الذين اشار اليهم دون ان يذكر اسماءهم الحقيقية او اولئك الذين لم يشر اليهم ابدا فوالد الدكتور طه مثلا اسمه حسين وليس في هذا جديد ولكن لعل الاغلبية الكاثرة ممن قرأوا سيرة الدكتور لا يعرفون ان اسمه حسين علي سلامة وقد كان علي جد الدكتور طه مشتغلا بالتجارة في مديرية سوهاج . اما حسين والد الدكتور طه واخوته الاحد عشر فقد كان يشتغل بغادريقة الدائرة السنية بالمنيا، وانتقل الى مغاغة بوظيفة قباني براتب شهري قدره اربعة جنيهات وكانت الدائرة السنية تبني لموظفيها مساكن وقد ابتنت بعض هذه المساكن بقرية او عزبة

تسمى عزبة الكيلو لانها تبعد عن مغاغة بمقدار كيلومتر . وقد استقر حسين بهذه العزبة منذ عام ۱۸۸۱ اي قبل مولد الدكتور طه حسين بثمان سنوات . وقد تزوج حسين من أسرة عوف التي كان يتاجر معها ابوه وهي عائلة تجار بالخرنفش بحي الجمالية وبنتهم التي تزوجها اسمها نفيسة وقد ولدت له ابنتين هما أمينة وجلفدان . و قد روى لي الدكتور طه عن جلفدان واذكر انه كان يذكر لي اسمها مشيراً الى الغرابة ان يكون اسم اخته جلفدان وهي ابنة رجل من الصعيد. اما نفيسة الأم فقد كان الدكتور واخوته من امه ينادونها بالخالة نفيسة، وامينة الاخت الاخرى هي اقرب اخوة الدكتور طه اليه فقد كانت تعني به وتقوم بشأنه في حدب واشفاق. ويمضي عدد الآداب قائلا إن صحة نفيسة قد اضطرت حسين علي سلامة الى زواج آخر سببه النزعة الصوفية السائدة في هذه المناطق تلك التي نوه بها الدكتور طه في كثير من كتاباته .

وقد كان في المنطقة شيخ صوفي من بلدة تسمى السرارية شرقي سمالوط وكان من تلاميذه ومريديه علي سلامة جد الدكتور طه لابيه وموسى محمد جد الدكتور طه لأمه رقية، وهكذا تم الزواج، ولم يكن حسين هو أول زوج لرقية فهي ايضا كانت قد تزوجت من قبل بالحاج يوسف وكان الدكتور طه واخوته يدعونه بالخال يوسف كما كانوا يدعون زوجة ابيهم الاولى بالخالة نفيسة .

اما ابناء حسين فهم . امينة وجلفدان ومحمد توفيق واحمد حسين وقد كان يسمى وقت ان ولد باحمد عرابي فحين هزم عرابي صار اسمه احمد حسين . وبعد احمد حسين جاء محمود الذي وصل في التعليم العالي الى البكالوريا وتهيأ لدخول مدرسة الطب ولكن الاجل وافاه مصاباً بالكوليرا في اجازة الصيف وقد كان لوفاته اثر واضح على الدكتور فيما رواه بالايام . وبعد محمود جاء حامد الذي درس ثم اشتغل بوزارة الاوقاف ثم فاطمة وزينب ثم طه حسين في عام ۱۸۸۹ ثم عبد العزيز وياسين واخيرا

عبد المجيد عام ١٩٠٣ .

وقد ظل الوالد حسين يعمل في شركة كوم امبو الى سنة ١٩٣٢ ثم عاد الى المنيا وتوفي رحمه الله سنة ١٩٤٢ اما والدة الدكتور طه فقد اختارها الله عام ١٩٥١ . ويمضي عدد الآداب بعد ذلك منوها بطفولة الدكتور طه التي شبت بعزبة الكيلو مع هؤلاء الاخوة ومع هذا الرمد الذي عولج اعنف علاج واقساه حتى انتهى بهذه الآفة التي يقول عنها الدكتور طه في ذكرياته

كانت تؤذيه سرًا ولا تجاهره بالخصومة والكيد . لم تكن تمنعه من المضي في الدرس ولا من التقدم في التحصيل ولا من النجح في الامتحان وانما كانت اشبه شيء بالشيطان الماكر المسرف في الدهاء والذي يكمن للانسان في بعض الاحناء والاثناء ، بين وقت ووقت ، ويخلي له الطريق يمضي فيها امامه قدما ، لا يلوي على شيء ثم يخرج له فجأة من مكمنه ذاك هنا او هناك فيصيبه ببعض الاذى وينثني عنه كأنه لم يعرض له بمكروه بعد ان يكون قد اصاب من قلبه موضع الحس الدقيق والشعور الرقيق وفتح له بابا من أبواب العذاب الخفي الاليم .

والله وحده يعلم الى اي متجه في الحياة كان سيتجه طه حسين لولا هذه الآفة غير انه اذا كان لنا ان نشق الغيب ونضرب في المجهول لاصررنا على ان طه حسين لم يكن يستطيع ان يكون غير طه حسين مبصرا كان أو غير مبصر . فهذه الطاقة العملاقة لا يردها شيء مهما يكن هذا الشيء خطيرا خطورة البصر .

ولعله لا يجوز لنا ان نعبر مرحلة الطفولة هذه دون ان نذكر هذه الواقعة الطريفة التي يرويها الشيخ احمد حسين حين كان يصطحب اخاه طه في الطريق الى ترعة المجرة التي تمر امام بيت علي سلامة والمتفرعة من ترعة الابراهيمية . وتقابل الاخوين في الطريق جاموسة تأخذ عليهما

الطريق الضيق فيركنان الى جانبه ناحية الترعة فما يلبثان ان ينزلقا اليها فيواجه احمد بدل الويل ويلين: الأول وقوعه في الترعة والثاني انه اوقع اخاه طه . كما قالت الوالدة للشيخ نخلة شيخ الكتاب وكان لا بد لاحمد ان يلتقي بعقابه عشرين جريدة على اكعابه ظل يذكرها ما امتد به العمر .

وحين ينزل الشيخان الى القاهرة يعتمدان على القدامى من المجاورين وقد وجههما والدهما ان يسكنا مع مجاور قديم هو الشيخ صالح ابو حديد فسكنا في حوش عطى وهو حوش مقسم الى ارباع كل ربع بترتيبه والربع كما لا يزال الى الآن يشبه الثكنة فهو مقسم الى وحدات تتكون من الغرفة الواحدة على اختلاف في السعة او بعض الملحقات من المداخل او المرافق . وفي الغرفة الاولى على اليسار من الربع الأول من حوش عطى ، يسكن طه مع أحمد وصالح أبي حديد المجاور الكبير ويدفعون في الأودة عشرة قروش اجرة شهرية ومصروف الواحد من الأخوين عشرة قروش للسكنى وغيرها بعد الزوادة التي ترسل اليهما مع تجار مغاغة الذين يتوافدون تباعا الى القاهرة محملين بما تطيق الأم ان ترسله لا تنسى حتى ان تحملهم بالخشب مكسراً ليكون وقوداً ودفئاً .

ويدخل طه الازهر الشريف قبل بلوغه السن التي كان محدداً يومذاك للانتساب الى الازهر وهي ١٥ سنة . ويتم هذا بطريقة ما . وتمر السنون وينتقل احمد وطه من الربع الاول في حوش عطى الى الربع الثاني بالحوش نفسه وهو سكن التجار وترتفع الاودة الى خمسة وعشرين قرشاً في الشهر ويشارك الاخوين فيها اخوهما حامد وابن اختهما امينة ومحمد عبد العال ابن خالتهما زينب الذي شارك في رفقة طه ليفرغ احمد لشأنه .

ولعل اهم ما ذكر في هذا الحديث هو الأسماء التي اشار اليها الدكتور طه دون ان يذكرها في كتبه . فقد اخذ نفسه في ايامه ومذكراته الا يذكر اسما حتى نفسه اشار اليها بالفتى .

اما ما بعد ذلك من حياة الدكتور طه فاعتقد انه لايحتاج الى اشارة فجميعه معروف وقد قدم هذا العدد من الأدب نماذج من مقالات الدكتور طه في ذلك الحين ومن شعره . ولعل اهم ماجاء في هذه النماذج قصيدة نشرت في جريدة مصر الفتاة قدمت لها الجريدة قائلة :

يرى القارىء في القصيدة البليغة الآتية ان صاحبها الاديب الفاضل قد انتهج فيها اسلوباً يظنه بعض الادباء من الاساليب الافرنجية لاتفاقها مع الشعر الافرنجي في التقاطيع والروي، ولكن هذا النوع لم يفت العرب في جاهليتهم فقد كانوا ينظمونه ويسمونه المسمط ، وقد نظم فيه امرؤ القيس اسماطاً أتى على امثال منها صاحب لسان العرب في مادة «سمط» وكان للعرب الاندلسيين اليد الطولى فيه . وتراه في موشحاتهم التي تفننوا في وزنها ورويها وابدعوا ماشاء التفنن والابداع .

واليك ما قاله حضرة الشاعر المجيد صاحب الامضاء (طه حسين) فيقصيدته التي التزم ان يجعلها اسماطا ، وكل سمط اربعة ابيات ويتفق البيت الأول مع البيت الثالث في الروي والبيت الثاني مع الرابع كذلك قال حفظه الله ونصر به الأدب :

شادن عطف ... عطفه الحبيب
بعد ان صدف ... صدفة الملول
كم سبى العقول ... قوله الخلوب
يملك القلوب ... ثم لا ينيل

كل ذي بهاء ... يمقت الوصال
يظهر الحياء ... وهو في صدود
من لدى الهوى ... منه بالنوال
ان في الجمال ... عثرة الجدود

ان في الهوى زلة القدم
فيه كم هوى ثابت الجنان
قل لذي السنان او لذي القلم
كلت الهمم عنه والبيان

بدؤه مجون يبهج الحياة
ثم بالجنون ينتهي الخبر
انما انتصر صاحب الاناة
تقتضي مناه منه ان صبر

وقد اوردت المجلة نماذج كثيرة من شعر الدكتور طه ونحن بطبيعة الحال حين نذكر شعر الدكتور طه فانما نذكره كعلامة تاريخية في ادبه . فصاحب هذا النثر الشاهق العملاق لا يمكن ان يكون صاحب هذا الشعر والظاهر ان موهبة الشاعر تختلف كل الاختلاف عن موهبة الاديب الكاتب مهما يكن هذا الكاتب طه حسين .

وقد سألت مرة الدكتور طه كيف لم تعجب بشوقي وانت صاحب هذا الاسلوب الموسيقي الرنان، وقال الدكتور لقد اخذت على شوقي انه يخطىء في التاريخ . ولعل هذه الفترة التي هاجم فيها شوقي من هذه الفترات التي اسف عليها بعد ذلك . واني لا زلت اذكر يوم اقام ابي حفل تأبين في ذكرى حافظ ابراهيم استمرت ثلاثة ايام بدار الاوبرا ووقف المرحوم ابراهيم عبد القادر المازني ليقول : لقد كنا انا والعقاد نهاجم شوقي وحافظ لنقف على انقاضهما فلم ننل الا من انفسنا ومن الحق .

وقد اعتذر الدكتور طه عن هذه الفترة جميعاً وقال : ان بعض الناس قد اغروه وهو في زهوة الشباب واندفاعه بهذا الهجوم وهو يقول بعد ذلك انه لم يأسف على شيء في حياته اسفه على هذه الفترة وما كتب فيها من مقالات .

ومنذ قريب وقف العقاد العظيم يمتدح شوقي ولكنه في كبريائه ولا اقول كبره لم يذكر شيئاً عن سابق هجومه عليه .

ان طه حسين يستطيع ان يعتذر عن حفنة من المقالات لم يرض عنها بعد ذلك .....فما هي في ادبه الا كلمة عابرة يستطيع ادبه المحيط ان يبتلعها فلا يبين لها اثر. ان طه حسين الروائي وطه حسين صاحب الكتب الاسلامية وطه حسين صاحب النقد المتفرد وطه حسين الذي فتح النوافذ مع اخوانه على الادب العربي وطه حسين الذي خرج الادب العربي الحديث يستطيع ان يقول انه اخطأ في شبابه ونستطيع نحن ان نرحب باعتذاره وكم اديب اقل حجماً من طه حسين اخطأ ثم ابى ان يقول انه اخطأ .

حين ولدت الرواية المصرية الحديثة على يد استاذنا المغفور له الدكتور محمد حسين هيكل . ولدت كالطفل اللقيط الذي يتخفى ابوه من ابوته فقد مهرها الدكتور هيكل بتوقيع مصري فلاح . ولم يكن هذا غريباً ولا لوم على استاذنا ولا تثريب . فلم يكن الدكتور هيكل يعد نفسه ان يكون روائياً . بل هو مهيأ لان يكون كاتباً سياسياً وكاتباً مفكراً، ولعله في ذلك الحين لم يكن يفكر انه سيصير من اعظم مؤرخي السيرة النبوية ان لم يكن اعظمهم . وكانت حكايات ابي زيد الهلالي سلامة والزناتي خليفة تملأ المقاهي على الربابة في ذلك الحين ولعله خشي ان يرميه خصومه السياسيون بانه شاعر ربابة يروي الحواديث . وما اكثر ما اختلق خصوم هيكل عليه من اكاذيب وعلى اية حال لم تكن نظرة هذا الجيل إلى الرواية نظرة الاجلال والأكبار التي تتمتع بها الرواية اليوم ، ولعلي لم اعرف احداً كان يجل الروائيين ويكبرهم من هذا الجيل او من الجيل الذي تلاه الا أبي رحمه الله فقد كان يحب الرواية ويجل كتابها ولعل هذا يرجع إلى تشربه للثقافة الفرنسية مع ثقافته العربية ولا شك ان الدكتور هيكل كان يعرف قيمة الكاتب الروائي في الأدب عامة، فان قليلا من الناس تهيأ له من الثقافة ما تهيأ للدكتور هيكل فقد نال ليسانس الحقوق قسم اللغة الانجليزية ثم درس الدكتوراه وقدمها باللغة الفرنسية

فهو اذن يجيد اللغتين اجادة تامة ومثله لا يجهل قيمة الأدب الروائي ولا الكاتب الروائي ولكنه مع ذلك تحرج ان يكتب اسمه على اول رواية له بل اول رواية في الأدب العربي كافة . ولست انسى يوماً دعيت فيه ان اجلس إلى استاذنا الكبير الدكتور هيكل لتسجيل حديث لمحطة الشرق الأدنى وكانت فكرة الحديث ان يجلس الدكتور هيكل إلى واحد من تلامذته وسأل مقدم البرنامج الدكتور :

– لقد بدأت معاليك بالرواية ثم اشتغلت بالسياسة والتاريخ ثم عدت إلى الرواية مرة اخرى في هكذا خلقت ؟

واذا بالدكتور هيكل يقول في هدوء وبساطة :

– حين عزلت وحرمت حقوقي السياسية رجعت إلى الرواية واؤكد لك انني حين استعيد حقوقي السياسية فسوف اترك الرواية واعود إلى حياتي السياسية مرة اخرى .

واذيع الحديث .

.

على اية حال ومهما تكن الاسباب فقد ولدت الرواية المصرية مجهولة الأب رسمياً وان كان الجميع قد عرفوا اباها حين ولادتها . ولم تصبح الرواية اصيلة النسب في الأدب العربي الا حين كتبها طه حسين وتوفيق الحكيم والمازني وتيمور .

وكتاب الأيام للدكتور طه تعارف الناس بشأنه فيما بينهم انه سيرة ذاتية لأن الناس تبينوا فيه الدكتور طه وزوجته وابنه وابنته واخوته وذويه وهو لم يحاول ان يخفي شيئاً من ذلك . ولكن لا نستطيع ان نضعه مع السيرة الذاتية بغير مناقشة . فقد تكلم الدكتور طه عن الفتى بصيغة الشخص الثالث

فهو لم يقل انا وانما روى قصة ذلك الفتى كما نروي اية قصة عن بطل ما نصنعه بخيالنا ليحمل إلى الناس ما نريد ان نقول فهو يبدأ كتابه الأيام كما يبدأ اي قاص قصته .

« لا يذكر لهذا اليوم وقتاً بعينه وانما يقرب ذلك تقريباً . واكبر ظنه ان هذا الوقت كان يقع من ذلك اليوم في فجره او عشائه . يرجح ذلك لانه يذكر ان وجهه تلقى في ذلك الوقت هواء فيه شيء من البرد الخفيف الذي لم تذهب به حرارة الشمس . ويرجح ذلك لانه على جهله حقيقة النور والظلمة يكاد يذكر انه تلقى حين خرج من البيت نوراً هادئاً خفيفاً لطيفاً كأن الظلمة تغشي بعض حواشيه . ثم يرجح ذلك لانه يكاد يذكر انه حين تلقى هذا الهواء وهذا الضياء لم يؤنس من حوله حركة يقظة قوية وانما آنس حركة مستيقظة من نوم او مقبلة عليه . واذا كان قد بقي له من هذا الوقت ذكرى واضحة بينة لا سبيل إلى الشك فيها فانما هي ذكرى هذا السياج الذي كان يقوم امامه من القصب والذي لم يكن بينه وبين باب الدار الا خطوات قصار . هو يذكر هذا السياج كأنه رآه امس ».

فهو اذن يريد ان يقدم اليك حياته كقصة . وعلينا نحن القراء ان نستقبل هذا العمل كقصة لان مؤلفها يريد لها ولنا ذلك . قد نعرف الابطال ونتبين حقيقتهم لاننا عايشنا الدكتور طه وعايشنا بعضاً ممن ذكرهم في القصة وعرفناهم عن قرب او عن بعد او عن سماع . ولكن الكتاب ليس مكتوباً لنا وحدنا نحن ابناء مصر ولا لنا نحن ابناء الأمة العربية اذا قدر لابناء الأمة العربية ان يعرفوا عن الدكتور طه ما نعرف بل ان هذا الكتاب قد ترجم إلى عدة لغات . وشرق الكتاب وغرب وما اظن ان النقاد قد لاحقوه حيث ذهب ليخبروا الناس في شتى بلدان العالم ان هذا الكتاب سيرة ذاتية . وحتى لو لاحقوا الكتاب وقراءه واخبروهم انه سيرة ذاتية لظل الكتاب مع ذلك رواية لان العمل الفني يقوم بذاته لا بتفسير الناس والنقاد له . والكتاب ايضاً ليس مكتوباً لنا نحن ابناء هذا الجيل وانما المفروض في العمل الأدبي انه يوجد

ليبقى ولتتوارثه الاجيال فاذا مات في الطريق إلى هذه الاجيال فهذا لا ينفي انه في اصل وجوده انما وجد ليبقى والموت بالنسبة اليه عارض ولم يكن مقدوراً له يوم ولد . وعلى كل حال فكتاب الايام من الكتب التي تحمل تباشير بقائها إلى ما بعد فناء هذا الجيل على اقل تقدير .

فهو اذن رواية . بكل ما تقوم به اركان الرواية .

وبهذه الرواية وبروايات الدكتور طه الاخرى : دعاء الكروان . شجرة البؤس . احلام شهرزاد . أوديب . الحب الضائع . المعذبون في الأرض . وبروايات توفيق الحكيم . عودة الروح . الرباط المقدس . وبروايات المازني ابراهيم الكاتب. وابراهيم الثاني . وميدو وشركاه . وعود على بدء . وبقصص محمود تيمور الأولى . بهذه الروايات والقصص ولدت الرواية والقصة المصرية ولادة شرعية تعرف اباها وتنتسب اليه . وحين ولدت الرواية هذه الولادة الشرعية قبل الدكتور هيكل الرجل المحافظ ان ينسب روايته إلى اسمه فظهرت الطبعة الثانية من رواية زينب ممهورة باسمه الصريح الدكتور محمد حسين هيكل .

اذن فالايام رواية فماذا اذن فعلت الايام في دنيا الرواية . انا لا انسى يوماً كنت اسير فيه مع عملاق الرواية العربية نجيب محفوظ منذ ما يقرب من عشرين عاماً فقلت له : انني اعتقد ان طه حسين في الرواية اقل منه في ميادينه الاخرى واذا هو يقول : لا نستطيع ان ننسى ان طه حسين قد فتح الابواب لألوان كثيرة من الرواية العربية فقد كتب صراع الانسان مع القدر في الأيام وكتب رواية الاسرة في شجرة البؤس وكتب صراع الانسان مع التقاليد في دعاء الكروان . ووجدت منطق نجيب قوياً وصادقاً واتجهت بتفكيري إلى هذا المتجه واستطيع اليوم ان ازيد انه كتب الرواية الرمزية في احلام شهرزاد وصراع الانسان مع نفسه في اوديب والاسطورة الاسلامية في على هامش السيرة . ان طه حسين فعلا قد فجر في الرواية العربية ما لم تكن تعهده ولننتقل معاً في بعض رواياته .

انه في الايام يصور شخصية الطفل الكفيف يلتقي بالحياة اول ما يلتقي بالحياة فاقداً بصره ويقدم شخصية فتاه وهو يصارع الحياة جميعاً بعد ان سلبته عنصراً من اهم عناصر كفاحه . انه لا يرى الحياة حتى يصارعها .. انه لايرى عدوه حتى يتقي ضرباته او يسدد اليه الضربات . ومن عجب بعد ذلك ان يصيب العدو ويقهر الحياة ويرغمها على ان تكون في ركابه بدلا من ان تكون من اعدائه . انها قصة ذلك الانسان الذي استطاع بجهده ان يصبح شكله مقبولا لا تقتحمه العين ولا تزدريه وان يهيىء لابنه وابنته حياة راضية واستطاع ان يثير في نفوس كثيرمن الناس ما يثير من حسد وحقد وضغينة وان يثير في نفوس ناس آخرين ما يثير من رضاً عنه واكرام له وتشجيع .

تلك هي رواية الأيام لطه حسين .. انها هذا الصراع العاتي الذي بدهت به الحياة فتى طفلا فقيرا كفيفاً يحيط به جهل القرية ويحاصره من كل جهاته ثم يصبح مع ذلك الى ما صار اليه وهو في ريعان العمر وريق الشباب .

انها قصة اوديب الملك الذي صارع القدر وفقأ عينيه وان كان الفتى قد صارع القدر بعد ان فقد عينيه . لا صلة بين الروايتين في التفاصيل والاحداث ولكن الروايتين تصدران عن منبع واحد. كلا البطلين صارع القدر . واظن ان استاذنا لم ينس هذه المقارنة وهو يجعل راوي القصة يقول لابنة الفتى الذي يروي عنه :

«نعم يابنتي ! لقد عرفت اباك في هذا الطور من حياته واني لأعرف ان في قلبك رقة وليناً واني لأخشى لو حدثتك بما عرفت من امر ابيك حينئذ ان يملكك الاشفاق وتأخذك الرأفة فتجهشي بالبكاء .

لقد رأيتك ذات يوم جالسة على حجر ابيك وهو يقص عليك قصة «اوديب ملكا» وقد خرج من قصره بعد ان فقأ عينيه لا يدري كيف .

يسير ، واقبلت ابنته انتجون فقادته وارشدته . رأيتك ذلك اليوم تسمعين هذه القصة مبتهجة من اولها ثم اخذ لونك يتغير قليلا .. قليلا واخذت جبهتك السمحة تربد شيئاً فشيئاً ، وما هي الا ان اجهشت بالبكاء وانكببت على ابيك لثماً وتقبيلا ، واقبلت امك فانتزعتك من بين ذراعيه ، وما زالت بك حتى هدأ روعك . وفهمت أملك وفهم أبوك وفهمت انا ايضاً انك انما بكيت لان اوديب الملك كان كأبيك مكفوفاً لا يبصر ولا يستطيع ان يهتدي وحده . فبكيت لأبيك كما بكيت لأوديب »

ويقول راوي القصة قبل ذلك مجملا ذلك العنت الذي لاقاه الفتى :

«لقد كان ابوك ينفق الاسبوع والشهر لا يعيش الا على خبز الازهر وويل للازهريين من خبز الازهر . ان كانوا ليجدون فيه ضروباً من القش والواناً من الحصى وفنوناً من الحشرات . وكان ينفق الاسبوع والشهر والأشهر لا يغمس هذا الخبز الاسود الا في العسل الاسود وانت لا تعرفين العسل الاسود وخير لك الا تعرفيه . »

ذلك بعض من العناء اجمله الراوي اجمالاً وربما فصله بعد ذلك في اجزاء الأيام الاخرى قد اصبح من الشهرة . بحيث لا يحتاج الا الى الاشارة والعناء الاكبر ذلك الذي يقوله راوي القصة حين يقول :

«كان سابع ثلاثة عشر من ابناء ابيه وخامس احد عشر من اشقته وكان يشعر بأن له بين هذا العدد الضخم من الشباب والاطفال مكاناً خاصاً يمتاز من مكان اخوته واخواته اكان هذا المكان يرضيه ؟ اكان يؤذيه ؟ الحق انه لا يتبين ذلك الا في غموض وابهام والحق انه لا يستطيع الآن ان يحكم في ذلك حكما صادقاً . كان يحس من امه رحمة ورأفة ، وكان يجد من ابيه ليناً ورفقاً ، وكان يشعر من اخوته بشيء من الاحتياط في تحدثهم اليه ومعاملتهم له . ولكنه كان يجد الى جانب هذه الرحمة

والرأفة من جانب امه شيئاً من الاهمال أحياناً ، ومن الغلظة احياناً اخرى . وكان يجد الى جانب هذا اللين والرفق من أبيه شيئاً من الاهمال ايضاً والازورار من وقت الى وقت . وكان احتياط اخوته واخواته يؤذيه لانه كان يجد فيه شيئاً من الاشفاق مشوباً بشيء من الازدراء .

على انه لم يلبث ان تبين سبب هذا كله. فقد احس ان لغيره من الناس عليه فضلا وان اخوته واخواته يستطيعون مالا يستطيع . وينهضون من الامر لما لا ينهض له وأحس ان امه تأذن لأخواته واخوته في أشياء تحظرها عليه وكان ذلك يحفظه. ولكن لم تلبث هذه الحفيظة ان استحالت الى حزن صامت عميق . ذلك انه سمع اخوته يصفون مالاعلم له به . فعلم انهم يرون ما لا يرى »

مسكين ذلك الفتى . لقد استقبلته الحياة بالهول اي هول وأرادت منه مع ذلك ان يصارعها . لكم شقي بطل رواية الايام بذلك المكان الخاص الذي يمتاز به من مكان اخوته واخواته . ولكم شقي برحمة أمه ورأفتها وبلين ابيه ورفقه وباحتياط اخوته في معاملتهم له وشقي نفس الشقاء باهمال امه احياناً وغلظتها في احيان أخر وباهمال ابيه وازورواره من وقت الى وقت وشقي نفس الشقاء بل اكثران كان هناك اكثر باشفاق اخوته واخواته ذلك المشوب بشيء من الازدراء .

افانين من الشقاء والوان من الألم في مطالع الحياة التي يستقبلها الاطفال كل الاطفال لينا ولهوا وبلهنية وسعادة واملا واطمئناناً .

وتمضي به الحياة لاتعفيه فيروي عن اخيه الذي اعطاه نظارة واستردها وهو نفسه من كان يقتر عليه لينال من نفقته الضئيلة ويمتع نفسه بها مرتاح الضمير هادىء النفس . ويروي عن الحرب شنت عليه لانه دعا الى حرية الرأي ويروي ويروي .

وتستمع الايام لما يروي وترضخ الايام لعزمه وتلين لجبروته وهو يغزوها مطمئناً انه يحمل في نفسه شيئاً يريد ان يقدمه للعالم ويقدمه ويبلغ من الأيام ما يريد لنفسه ان يبلغ .

فأي صراع مع القدر اقوى من هذا الصراع واي رواية تستطيع ان تضم في احنائها اشتجار الانسان مع الحياة قدر ما ضمت رواية الأيام .

فاذا انتقلنا الى رواية دعاء الكروان وجدنا ذلك الصراع بين البيئة والانسان وان كان الانسان قد انتصر في رواية الأيام فان البيئة والمجتمع قد انتصرا في دعاء الكروان. والواقع ان المجتمع وان كان جزءا من الحياة الا انه اقوى من الحياة. ولست بناقل لك تلخيصاً لرواية دعاء الكروان صغر هذا التلخيص او كبر وانما هي الاشارة العابرة ثم نمضي . فان لم تكن قد قرأت الرواية فانت مقصر في حق نفسك وان شئت فالتمسها فانك واجدها . فكتب طه حسين لا تنفد من الاسواق لان المطابع تطبعها دائماً لتواجه بها مطالب الاجيال الثقافية من القراء .

وقد كان آخر اتفاق مع الدكتور طه هو ذلك الذي تم بينه وبين دار الكتاب اللبناني التي طبعت كل اعماله في خمسة عشر مجلداً وقد كان عجيباً ان تقوم لبنان بذلك ولا تقوم مصر . ولعل الاعجب من ذلك ان اعجب انا فان شيئاً لم يعد عجيباً في بلدنا .

على اية حال فالرواية لا تحتاج الى تلخيص والعمل الفني بطبيعته غير قابل للتلخيص ولكن الرواية في اسلوبها الشاهق الناصع تقدم لك مأساة فتاة تصارع تقاليد الصعيد وويل لاهل الصعيد من تقاليده وويل للصعيد من تقاليد اهله .

والدكتور طه يقول في الصفحات الاولى من الرواية على لسان الفتاة

التي تروي القصة: «لبيك ، لبيك ايها الطائر العزيز ، مازلت ساهرة ارقب مقدمك وانتظر نداءك وماكان ينبغي لي ان انام حتى احس قربك واسمع صوتك واستجيب لدعائك ، ألم اتعود هذا منذ اكثر من عشرين عاماً

لبيك لبيك ايها الطائر العزيز ما أحب صوتك الى نفسي اذا جثم الليل وهدأ الكون ونامت الحياة وانطلقت الارواح في هذا السكون المظلم آمنة لا تخاف صامتة لا تسمع . ان صوتك اذن لأشبه الاشياء بان يكون صوتاً لروح من هذه الارواح ليذكرني روح هذه الاخت التي شهدت مصرعها معي في تلك الليلة المهيبة الرهيبة . وفي ذلك الفضاء العريض الذي لم يكن من سبيل الى ان يسمع الصوت فيه مهما يرتفع . ولا ان يجيب المستغيث فيه لمن استغاث .

لبيك . لبيك ايها الطائر العزيز ، ادن مني ان كان من اخلاقك الدنو ، وأنس اليّ ان كان من خصالك الانس الى الناس ، واسمع مني وتحدث اليّ وهلم نذكر تلك المأساة التي شهدناها معاً ، وعجزنا عن ان ندفعها او نصرف شرها عن تلك النفس الزكية التي ازهقت ، وعن هذا الدم البريء الذي سفك .

فلم نزد حينئذ على ان بعثنا صيحات ترددت في ذلك الفضاء العريض لكنها لم تبلغ اذنا ولم تصل الى قلب ، وانما صعدت الى السماء حين هوى ذلك الجسم الجميل الممزق في تلك الحفرة التي اعدت له اعداداً ثم هيل التراب وسويت الارض ، وانت تدعو ولا من يستجيب ، وأنا استغيث ولا من يغيث ، وامرأة متقدمة في السن قد انتحت ناحية وجلست تذرف دموعها في صمت عميق ، ورجل متقدم في السن قد قام غير بعيد يسوي الأرض ويصب عليها الماء ويردها كما كانت ، ثم ينتحي قليلا ويزيل عن جسمه وثيابه آثار الدم والتراب ثم يرتفع صوته آمراً ان هلمّ فقد آن لنا الآن ان نرتحل .

منذ ذلك الوقت تم العهد بينك وبيني ايها الطائر العزيز على ان نذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل حتى نثأر لهذه الفتاة التي غودرت في هذا الفضاء ثم نذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل بعد ان نظفر بالثأر ، ليكون في ذكرنا اياها وفاء لهذه النفس التي ازهقت ولهذا الدم الذي سفك ، ورضا عن الانتقام وقد ألمّ بالآثم المجرم ورد الامر الى نصابه ، واراح هذه النفس التي مازالت تطلب الري حتى تظفر بالثأر من الذين اعتدوا عليها .

لبيك ، لبيك ايها الطائر العزيز ، انا لنلتقي كلما انتصف الليل منذ اعوام واعوام فنذير بيننا هذا الحديث ، افتدعني اقص اطرافاً منه على الناس لعلهم ان يجدوا فيه عظة تعصم النفوس الزكية من ان تزهق ، والدماء البريئة من ان تراق ؟ »

ويستطيع النقاد ان يوجهوا الى هذه الفقرة بل الى الرواية كلها من خلال هذه الفقرة ما يشاؤون من نقد. فهم يستطيعون مثلا ان يقولوا ما هذا الجرس اللفظي الموسيقي المحكم . وكيف يتأتى لفتاة في اعماق الصعيد ان توقع هذا الكلام العذب الذي توشك مقاطعه ان تكون شعرا : ليس هذا الحديث حديث الفتاة وانما هو حديث طه حسين . لا واقعية في هذه القصة انما هي محاضرة يلقيها الدكتور طه حسين الاستاذ الجامعي على قرائه .

وقد قالوا هذا فعلا او قريباً من هذا. وهؤلاء النقاد يحملون الواقعية فوق ما تحتمل فان احدا لم يقل ان الواقعية نقل من الواقع فالكاتب ليس مصوراً فوتوغرافياً وانما هو قصاص والذي ينقل الواقع هو المصور الفوتوغرافي أو الصحفي الامين ويندر بين قصص الحياة ما يحتمل النقل بلا تحريف ان وظيفة القصاص الواقعي ان ينقل عن الحياة لا قصصها وانما واقعها فالحدث واقعي اذا كان قابلا للوقوع في الحياة . فالواقعية مذهب طور الرومانسية التي كانت تحفل بالمبالغات في التسامي او الشرور ونقل الحياة كما يمكن ان تكون الحياة . وهناك قصص كثيرة يراها

القصاص وقد الفتها الحياة ومع ذلك لا يستطيع القاص ان ينقلها الى الفن لان الفن سيجفوها ويرفضها فهي خالية من المنطق . فالحياة حين تؤلف لا تعنى في كثير او قليل بمنطق المتفرج او رأي النقاد او نظام الحياة نفسه . انما القصة التي تؤلفها الحياة هي قصة تكسر طبيعة الامور ومجرى الحياة العادي تفتعل من الاحداث ما لا يقبله منطق ولا عقل بينما القصاص لا يجرؤ ان يجاريها في هذه الجرأة على طبيعتها . والعجب ان وظيفة القاص تظل مع ذلك وبعد ذلك هي ان ينقل احداثاً غير طبيعية على ان ينقل معها منطقها الذي يسوغها للقارئ ويجعلها مقبولة عنده ، وهذه هي الواقعية وهي بعد ذلك قد تحمل رأي الكاتب صريحاً او مهموساً. ولكن لا بد أن يتدثر هذا الرأي بالعمل الفني . فالقصة في الواقع — في رأيي— عبارة عن انعكاسين الأول هو انعكاس الحياة او احداث معينة واشخاص بذواتهم من الحياة على نفس الكاتب ثم انعكاس هذه الاحداث واولئك الاشخاص وقد تضافروا في تكوين عمل قصصي فني من نفس الكاتب الى قرائه . وفي هذا الانعكاس الثاني لا بد ان يرى القارئ كاتبه باللون الذي عرفه ان كان كاتباً معروفاً او باللون الذي اختاره الكاتب لفنه او فرض عليه بحكم ثقافته . وهكذا يختلف طه حسين عن المازني عن توفيق الحكيم عن هيكل عن تيمور عن نجيب محفوظ عن السباعي عن عبد الرحمن الشرقاوي عن عبد القدوس عن عبد الحليم عبد الله .

ثم هناك بعد ذلك نوع من الخداع البريء المتفق عليه بين القارئ والكاتب: فالقارئ يعلم ان الكاتب لا يروي له تاريخاً وانما هو يقص عليه قصصاً يريد به ان يقول شيئاً له فالقارئ يقبل على كاتبه اذا استطاع ان ينسيه ان ما يحكيه له خيال لم يقع في واقع الحياة والكاتب يعلم هذا عند قارئه فهو يحاول ما وسعه الجهد ان يقدم فنه وكأنه امر واقع يحاول ما وسعه الجهد ان ينسي القارئ ان ما يرويه له هو انعكاسه الفني . فالقارئ اذن لا ينتظر من قصاصه الصدق في الحكاية وانما ينتظر منه الصدق في الفن والطريق الى هذا ليس هو التهافت في الاسلوب كما يظن البعض وليس

العامية في الحوار كما يظن البعض الآخر فكل هذه تفاصيل يلجأ اليها الشداة الجدد الذين لم يتكون لهم اساوب بعد ولا يطيقون ان يديروا الحوار بالعربية البسيطة. ان الطريق الى ذلك ان يكتب الفنان نفسه وهو يكتب ولا ينظر الا الى نبض قلبه هو لا نبض قلب غيره . فلو ان احسان عبد القدوس كتب دعاء الكروان وكتب هذه الفقرات التي سقتها اليك لما اقبل قارئه عليه ولا اقبل عليه ايضاً قارئ طه حسين . ان هذه الفقرات التي سقتها اليك هي طه حسين ولا يمكن ان يكون طه حسين الا هكذا .

وقد يقول بعض آخرون من النقاد انه في هذه الفقرات قد كشف روايته فانتقص من التشويق اليها . وهذا ايضاً مردود عليهم فالتشويق قائم واجتذاب القارئ موهبة مضمرة وسر لا يعلمه الا الله سبحانه وتعالى . فقد ترى القصة وقد اكتملت فيها جميع الشروط التي وضعها النقاد ولكن القصة ومع ذلك تفتقد الجاذبية فتفقدها ان هذه الصلة التي تحدث بين القارئ والكاتب هي من اسرار الموهبة التي يجاهد النقاد ان يكتشفوها ولكنهم يرتدون عنها عاجزين اشبه ما تكون بسر الروح لا يعلمها — كما قلت — الا الله سبحانه وتعالى . اما التشويق في ذاته وهو جانب من جوانب الجاذبية في العمل الفني فقد حاول بعض الكتاب في اوربا ان يلغوه من العمل القصصي فباء قصصهم بالفشل وهناك كاتب انجليزي كبير كتب رواية تدعى — فيما اذكر — السفينة (The Ship) وكان يضع ملخصاً لكل فصل في بدايته ولكنه لم يستطع — رغم جهده — ان يلغي التشويق فقد قرأت هذه الرواية وكنت بعد ان اقرأ الملخص احب أن اعرف التفاصيل وبهذا بقي عنصر التشويق قائماً ونجحت الرواية نجاحاً ساحقاً .

فليس على استاذنا من بأس ان يومئ الى بعض من احداث روايته في اول الرواية فما زال بنا شوق ان نعرف كيف حدث هذا الذي يومئ اليه .

وقد يقول بعض النقاد ان هذا الاسلوب الجميل قد يصرف القارئ عن احداث

الرواية ليستمتع بالأسلوب. وهذا تخريف فالثوب الجميل يزيد الشخص الجميل الذي يلبسه جمالا. ولا يمكن ان تنصرف عيناك عن جمال الشخص الى جمال ملابسه بل ان جمال كل منهما يزيد الآخر تألقاً واشراقاً . وما اجمل ان تقرأ قصة في موسيقى اسلوبية كهذه التي يعزف بها طه حسين حين يكتب .

ولا شك ان كثيراً من النقاد سيقولون ان هذه الجمل الوعظية التي جاءت في آخر الفقرة تتنافى مع هدف العمل الفني جميعاً فالمفروض ان الموعظة ان كان لا بد ان تكون هناك موعظة تستشف من العمل الفني في جملته بغير تصريح فان صرحت انتقل العمل الفني من القصة الى المقالة . وقد يصيبون بعض الحق ان قالوا هذا ولكن لو تذكرنا ان هذه الرواية قد كتبت في عام ١٩٣٤ وهي من اوائل الروايات التي نقلت الفن الروائي الى عالم الواقعية ولو تذكرنا ان قراء هذه الفترة لم يكونوا قد مرنوا بعد على قراءة الرواية لقبلنا من استاذنا هذا الذي كتبه فقد كان يمهد الطريق فلا عليه ان هو ترفق بالقارئ وهو يجتذبه الى طريق جديدة عليه لم يتعود السير فيها .

ولو لم يفعل هذا استاذنا الدكتور طه حسين لاضطر ان يفعله استاذنا نجيب محفوظ. فان نجيباً كتب بالاكتمال الذي كتب به حين وجد ان الطريق قد مهد باقلام سابقيه من العمالقة الرواد: هيكل وطه والحكيم وتيمور والمازني .

وفي رواية أديب ينتقل الدكتور طه الى لون آخر من ألوان الصراع لعله من ادق ألوانه واكثرها احتياجاً الى الفنية والمعرفة باحناء النفس الانسانية وطواياها . فهو يرسم صراع الانسان مع نفسه ... ذلك الصراع بين ما يريد الانسان ان يكون وبين ما يستطيع ان يكون . كيف يدور الصراع بين آمال الانسان وممكناته . وبين طموحه ونزعات نفسه . والرواية ترسم شخصاً بذاته

عرفه الدكتور طه وصاحبه وذكر لي اسمه واني لمخف هذا الاسم بل اني حتى قد نسيته لانه طلب الي الا اذيع اسمه بين الناس وانا انسى السر اذا استودعته حتى لا تخالجني نفسي ان اعلنه . ولكن الذي اذكره ان الدكتور كان يحب هذا الرجل حباً عميقاً وكان يكبره ويعتز بصداقته ولعل حديثه اليه في تقديم الكتاب يظهرك على مبلغ ما يكنه له من حب واكبار .

«اخي العزيز ، وددت لو اسميك ولكنك تعلم لماذا لا اسميك . وحسب الذين ينظرون في هذا الكتاب ان يعلموا انك كنت اول المعزين لي حين اخرجني الجور من الجامعة واول المهنئين لي حين ردني العدل اليها . وكنت بين ذلك اصدق الناس لي وداً في السر والجهر واحسنهم عندي بلاء في الشدة واللين . فتقبل مني هذا العمل الضئيل تحية خالصة صادقة لاخائك الصادق الخالص »

والدكتور طه في هذه الرواية يختار الرواية على لسانه هو فهي اذن مروية بلسان المتكلم وهو بهذا يقطع الطريق على المتنطعين من النقاد ان يقولوا شيئاً يتصل بجمال الاسلوب فان طه حسين هو الذي يروي . والرواية بلسان المتكلم تتيح للقاص ان يتدخل كما يشاء في القصة. فهو باختياره لهذه الطريقة يفسح لنفسه ان يلقي بما يشاء من آراء من داخل العمل الفني وان كانت تقف به عن مجال هائل يتمتع به الراوي الذي يتحدث عن الغائب اي بصيغة الشخص الثالث كما يقول الغربيون . فهو الذي يروي عن الغير يستطيع ان يروي وهو عالم بكل شيء كما تعرفه اللغات العالمية «العالم بكل شيء» Omnisience

اما الشخص الأول فيروي ما يعرفه فقط — اي انه يروي من القصة ما اتصل به وحده فاذا ذكر حادثاً لا يتصل به اضطر ان يتلمس وسيلة يبلغ بها القارىء كيف اطلع على هذا الحدث الذي وقع بعيداً عنه . والكاتب صاحب الاسلوب المتألق يستطيع ان يفسح لقلمه واسلوبه المجال اذا اختار صيغة المتكلم لان طبيعة هذا النوع من الرواية تتيح للكاتب ان يتدفق تدفقاً اسلوبياً

دون حرج وانا لا اعتقد ان استاذنا الدكتور قد اختار هذا الطريق لهذه الاسباب فقد كان يضرب برأي النقاد فيما يتصل بالأسلوب عرض الأفق . انما اراد ان يكرم صاحبه ويظهر القارىء على هذا الود الذي كان بينهما ويهدي إلى روح صديقه هذه الرواية تحية حب واجلال واكبار وهكذا يبدأ الدكتور طه روايته وكأنما يبدأ كتاباً يبحث في شأن الأديب وما يعانيه من حياته وما تعانيه منه الحياة حتى يصل إلى صاحبه فيبدأ قصته عنه او قصته معه اذا شئت .

« زعموا ان من اظهر خصائص الأديب حرصه على ان يصل بين نفسه وبين الناس ، فهو لا يحس شيئاً الا اذاعه ولا يشعر بشيء الا اعلنه وهو اذا نظر في كتاب او خرج للتروض او تحدث إلى الناس فاثار شيء من هذا في نفسه خاطراً من الخواطر ، او بعث في قلبه عاطفة من العواطف او حث عقله على الروية والتفكير ، لم يسترح ولم يطمئن حتى يقيد هذا الرأي او تلك العاطفة او ذلك الخاطر في دفتر من الدفاتر او على قطعة من القرطاس ».

ذلك لانه مريض بهذه العلة التي يسمونها الأدب ، فهو لا يحس لنفسه وانما يحس للناس وهو لا يشعر لنفسه وانما يشعر للناس وهو لا يفكر لنفسه وانما يفكر للناس . وهو بعبارة واضحة لا يعيش لنفسه وانما يعيش للناس . وهو حين يأتي من الأمر هذا كله يخادع نفسه اشد الخداع ويضللها اقبح التضليل . فيزعم انه موثر لا يريد ان يستمتع وحده بنعمة الاحساس والشعور والتفكير . انما يريد ان يشرك الناس في هذا الخير الذي انتجته طبيعته الرقيقة الخصبة الغنية ، فاذا كان متواضعاً معتدل الرأي في نفسه فهو شقي تعس محزون ، يحب ان يعلن إلى الناس ما يجد من شقاء وتعس وحزن لعلهم يرثون له او يرأفون به او يشنقون عليه . وربما لم ير في نفسه ايثاراً ، ولم يحس انه شقي وانما آثر نفسه بالخير ، واحبها قليلا او كثيراً فهو يسجل ما يحس وما يشعر وما يفكر لحفظه من الضياع وليستطيع العودة اليه من حين إلى حين كلما خطر له ان يستعرض حياته الماضية . وكثيراً ما تعرض له الفرص التي تحمله ان

يستعرض حياته الماضية ، والذاكرة قصيرة ضعيفة ، فلم لا يسجل خواطره وعواطفه وآراءه التي يتكون منها تاريخه الفردي الخاص ليعود اليه كلما دعاه إلى ذلك جد الحياة او هزلها ؟

وما اكثر ما يدعو جد الحياة او هزلها إلى ان يستعرض الانسان حياته الماضية وما اختلف عليه فيها من احداث .

يخدع الاديب نفسه هذه الضروب من الخداع يعللها بهذه الالوان من التعلات وحقيقة الامر انه يكتب لانه اديب لا يستطيع ان يعيش الا اذا كتب . يكتب لانه محتاج إلى الكتابة كما يأكل ويشرب ويدخن لانه محتاج إلى الطعام والشراب والتدخين. وهو حين يكتب قلما يفكر فيما يحسن ان يكتب . وما ينبغي الا يعرفه القرطاس او يجري به القلم كما انه حين يأكل ويشرب قلما يفكر فيما يلائم صحته وطبيعته ومزاجه من الوان الطعام والشراب واصناف التبغ . انما هي حاجة تضطره إلى الحركة فيتحرك وتدفعه إلى العمل فيعمل . فاما عواقب هذه الحركة ونتائج هذا العمل فاشياء قد يتاح الوقت للتفكير فيها في يوم من الايام حين تصبح امراً مقضياً لا منصرف عنه ولا سبيل إلى التخلص منه .

اذا كان هذا كله صحيحاً ، واكبر الظن انه صحيح ، فيجب ان يكون صاحبي الذي اريد ان اتحدث اليك عنه اديباً فلست اعرف من الناس الذين لقيتهم وتحدثت اليهم رجلا اضنته علة الأدب واستأثرت بقلبه ولبه كصاحبي هذا ، كان لا يحس شيئاً ولا يشعر بشيء ولا يقرأ شيئاً ولا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً الا فكر في الصورة الكلامية او بعبارة ادق في الصورة الأدبية التي يظهر فيها ما أحس وما شعر وما قرأ وما رأى وما سمع . »

وهكذا وببراعة فائقة تبدأ الرواية وتمضي فصولها لتروي لك عن هذا الصديق وكأنما لا يقصد الدكتور طه الا ان يروي عن هذا الصديق وقد يرى

قارىء طيب ان الدكتور طه لم يرد الا ان يروي عن صديقه هذا ويكرم حياته بعد مماته ولكن هذا القارىء الطيب ان انعم النظر قليلا لتكشف له ما كان خفياً ولا تضح له ما تلبسه النص من معنى فاذا هذا الأديب يدخل في صراع عتي بين ما يصبو اليه وبين ما يحن اليه . فهو يصبو إلى الجد ويحن إلى المتعة . وصراع آخر بين ما وهبته له الحياة من مكنات الصحة وبين ما يريد من الحياة ان تعطيه ... ما أقل ما نال من الحياة وما اعظم ما كان يرجو منها.

هلم بنا الآن لنتذاكر معاً كتاب طه حسين الرائع « المعذبون في الأرض » ودعنا نتساءل اول ما نتساءل . في اي قسمي القصة سندرج « المعذبون في الأرض » أهي رواية ام مجموعة من القصص القصيرة ؟ !

لشتاينبك عمل فني لا استطيع ان انسبه هو الآخر إلى الرواية ولا إلى القصة القصيرة . وقد قرأت هذا الكتاب مترجماً فقد ترجم عدة ترجمات سمي في احداها مراعي السماء وكانت هذه هي الترجمة التي وقعت عليها انا . والكتاب عبارة عن مجموعة قصص . تبدأ بقصة عن المكان يذكر فيها اسماء الابطال الذين سيروي عنهم جميعاً ولنسمهم مثلا « زيد وعمرو وعاصم والهام وصفية » حتى اذا وصلنا إلى القصة الثانية وجدنا زيداً وقد اصبح بطل القصة بدلا من المكان مراعي السماء الذي كان بطلا في القصة الاولى ونحن في قصة زيد سنلتقي بمراعي السماء وبعمرو وعاصم والهام وصفية وهم يلفون حول البطل كشخصيات ثانوية وفي القصة الثالثة نجد عمرواً قد صار البطل ونزل زيد عن البطولة ليصبح شخصية ثانوية مع الآخرين ومع المكان وهكذا . ومنذ قرأت هذا الكتاب وانا حائر في اختيار النوع الذي ينتسب اليه أهو رواية أم مجموعة قصص قصيرة . ولا عليه ولا علينا ان يكون اياً من الاثنتين فهو عمل فني رائع .

والمعذبون في الأرض يقف بنا عند هذه الحيرة وهو سابق في تاريخ صدوره على مراعي شتاينباك . فان كانت الصلة في قصص شتاينبك هي

الاشخاص فالصلة في «المعذبون» هي الموضوع. فهم جميعاً معذبون في الأرض.

وقد ذهب بعض النقاد المذهبيين إلى ان هذا الكتاب يخدم مذهباً بذاته ولعل هذا القول هو اسخف ما قاله النقاد عن طه حسين . انه كتاب انساني يدق الرؤوس الغارقة في الغنى الغافلة عن الفقر ويشق الأعين المتخمة من الكظة والناعسة عن العيون المتهرئة من الجوع . وهذه معان انسانية ان لم يعتنقها الكاتب فهو ليس انساناً وبالتالي فهو ليس كاتباً . لأن الكاتب بطبيعة وظيفته في الحياة هو الانسان الشفاف الذي يشق سدوف الغيب عن المستقبل فيدعو إلى الحذر او يشق ما استغلق حول احداث الماضي ليبين ما خفي من معانيها وما استخفى من عبرها . وهذه النغمة التي شاعت في كتاب « المعذبون في الأرض » كان يكتب بها جميع الكتاب مهما تختلف منازع عقائدهم ولعل محمود تيمور من اكثر الكتاب كتابة في هذا الميدان مع انه ابعد الناس عن العقائدية ولكن الكتاب كانوا بطبيعتهم يحاربون الطبقة الميسورة لان الغالبية العظمى منها لم تكن موطأة الاكناف للفقراء فكان الكتاب يهزون مضاجعهم ليشركوا الفقير فيما ينعمون به . حتى اذا اصبحت هذه الدعوى شعاراً رسمياً وقف الكتاب من هذه النغمة لينظروا ما الرسميون فاعلون حتى اذا زالت الطبقة جميعاً اصبحت مهاجمتها نوعاً من الرخص المبتذل الحقير فان حرب الغائب جبن . وبدأت الشجاعة تتبلور في محاربة الطبقة الجديدة التي حلت مكانها اقسى ما يكون الحلول وابشع ما يكون التبدل والفقير على الحالين يرقب الاغنياء ويتملق عطفهم . فان كان هناك في زمن مضى من يهزه دعاء لمحتاج او يخشى دعوة المظلوم . فان الطبقة التي تكونت كونت معها سياجاً ايرد دعاء المحتاج ويتعالى عن دعوة المظلوم ولكن الله لم يكن بغافل عن المعتدين ومن لم يلق الجزاء فجزاؤه امامه في الطريق وانه ملاقيه .

فكتاب « المعذبون في الارض » كتاب طبيعي في فترته فهو انساني في دعوته يصدر عن كاتب انسان ومرة اخرى من ليس انساناً فهو ليس بكاتب على اي صورة من الصور .

والمعذبون في الارض يجمع إلى القصص الحديث القصص التاريخي أتراك تريد ان نرنو معاً إلى كتاب تاريخي محض من روايات استاذنا العظيم ؟

لنصحب على هامش السيرة . تلك التي تجنى عليها البعض وظنوا بها انها كتاب تاريخي وراح بعضهم يحاسبها على هذا الاساس في سذاجة وعناء . ولو قد القى نظرة إلى مقدمة الكتاب بل إلى السطر الأول من مقدمةالكتاب لأراح واستراح ولبدأ يبحث لهذا الكتاب عن مكان آخر يضمه اليه في المكتبة العربية .

« هذه صحف لم تكتب للعلماء ولا للمؤرخين ، ولم اقصد بها إلى التاريخ . وانما هي صورة عرضت لي اثناء قراءة للسيرة فاثبتها مسرعاً ثم لم ار بنشرها بأساً . ولعلي رأيت في نشرها شيئاً من الخير ، فهي ترد على الناس أطرافاً من الأدب القديم قد افلتت منهم وامتنعت عليهم ، فليس يقرأها منهم الا اولئك الذين اتيحت لهم ثقافة واسعة عميقة في الأدب العربي القديم . وانك لتلتمس الذين يقرأون ما كتب القدماء في السيرة وحديث العرب قبل الاسلام . فلا تكاد تظفر بهم . انما يقرأ الناس اليوم ما يكتب لهم المعاصرون في الأدب الحديث بلغتهم او بلغة اجنبية من هذه اللغات المنتشرة في الشرق يجدون في قراءة هذا الأدب من اليسر والسهولة ، ومن اللذة والمتاع ما يغريهم به ويرغبهم فيه ، فاما الأدب القديم فقراءته عسيرة وفهمه اعسر وتذوقه اشد عسراً ، واين هذا القارىء الذي يطمئن إلى قراءة الاسانيد المطولة ، والاخبار التي يلتوي بها الاستطراد وتجور بها لغتها القديمة الغريبة عن سبيل الفهم والذوق الهين الذي لا يكلف مشقة ولا عناء .

ذلك ان الأدب القديم لم ينشأ ليبقى كما هو ثابتاً مستقراً ، لا يتغير ولا يتبدل ، ولا يلتمس الناس لذته الا في نصوصه يقرأونها ويعيدون قراءتها ويستظهرونها ويمعنون في استظهارها ، انما الأدب الخصب حقاً ، هو الذي يلذك حين تقرأه لأنه يقدم اليك ما يرضي عقلك وشعورك ، ولانه يوحي

اليك ما ليس فيه ، ويلهمك ما لم تشتمل عليه النصوص ويعيرك من خصبه خصباً ، ومن ثروته ثروة ومن قوته قوة وينطقك كما انطق القدماء. ولا يستقر في قلبك حتى يتصور في صورة قلبك او يصور قلبك في صورته ، واذا انت تعيده على الناس فتلقيه اليهم في شكل جديد يلائم حياتهم التي يحيونها ، وعواطفهم التي تثور في قلوبهم وخواطرهم التي تضطرب في عقولهم .

هذا هو الأدب الحي . هذا هو الأدب القادر على البقاء ومناهضة الايام . فاما ذلك الأدب الذي ينتهي اثره عند قراءته فقد تكون له قيمته ، وقد يكون له غناؤه ولكنه ادب موقوت يموت حين ينتهي العصر الذي نشأ فيه . ولو انك نظرت آداب القدماء والمحدثين لرأيت فيها طائفة لا يمكن ان توصف بانها آداب عصر من العصور او بيئة من البيئات او جيل من الاجيال وانما هي آداب العصور كلها والبيئات كلها والأجيال كلها ، لا لأنها تعجب الناس على اختلاف العصور والبيئات والاجيال فحسب بل لأنها مع ذلك تلهم الناس وتوحي اليهم ، وتجعل منهم الشعراء والكتاب والمتصرفين في الوان الفن على اختلافها .

وليس خلود الالياذة يأتيها من انها تقرأ فتحدث اللذة وتثير الاعجاب في كل وقت وفي كل قطر بل هو يأتيها من هذا ، ومن انها الهمت وما زالت تلهم الشعراء وتوحي اليهم اروع ما انشأ الناس من آيات البيان . ولقد كان « ايسكولوس » ابو التراجيديا اليونانية يقول انه انما يلتقط ما يسقط من مائدة هوميروس . وما زال القصاص وشعراء التمثيل والغناء في الغرب خليقين ان يقولوا الآن ما كان يقوله ايسكولوس منذ خمسة وعشرين قرناً . ولم تكن قصص ايسكولوس وغيره من شعراء التمثيل اليوناني اقل خصباً من الالياذة بل هي قد الهمت من الكتاب والشعراء قديماً وحديثاً وما زالت قادرة على ان تلهمهم إلى اليوم وإلى الغد .

واني لاذكر اني قرأت منذ اعوام قصة تمثيلية هي الثامنة والثلاثون

من نوعها وقد سماها صاحبها « جيرودو » بهذا الرقم فوضع لها هذا العنوان « انفيترون رقم ٣٨ » كانت اسطورة تتصل بمولد هرقل فصورها سوفوكل قصة تمثيلية في القرن الخامس قبل المسيح وما زال الشعراء والكتاب من اليونان والرومان والاوربيين المحدثين يتأثرون ويذهبون مذهبه او غير مذهبه ، في تصوير هذا الموضوع حتى انتهت القصص التي كتبت فيه شعراً ونثراً إلى هذا العدد الضخم .

ولم يحجم فحول التمثيل عن طرق هذا الموضوع لأنهم سبقوا اليه ، بل زادهم ذلك حرصاً عليه ورغبة فيه . وكان بين الذين طرقوه الشاعر اللاتيني « بلوت » والشاعر الفرنسي « موليير » ثم لم يشفق جيرودو من ان يطرق موضوعاً سبق اليه الفحول من شعراء التمثيل في العصور القديمة والحديثة فصور قصته هذه الثامنة والثلاثين وعرضها على النظارة في باريس سنة ١٩٢٩ فكان فوزها عظيماً واعجاب النظارة والقراء بها لا حد له .

وفي ادبنا العربي على قوته الخاصة وما يكفل للناس من لذة ومتاع قدرة على الوحي وقدرة على الالهام . فأحاديث العرب الجاهليين واخبارهم لم تكتب مرة واحدة ولم تحفظ في صورة بعينها . وانما قصها الرواة في الوان من القصص وكتبها المؤلفون في صنوف من التأليف . وقل مثل ذلك في السيرة نفسها. فقد الهمت الكتاب والشعراء في اكثر العلوم الاسلامية وفي اكثر البلاد الاسلامية ايضاً فصوروها صوراً مختلفة تتفاوت حظوظها من القوة والضعف والجمال الفني . وقل مثل هذا في الغزوات والفتوح وقل مثل هذا في الفتن والمحن التي اصابت العرب في العصور المختلفة ولم يقف الهام هذا التراث الأدبي العظيم عند الكتاب والشعراء الذين ينمقون النثر ويقرضون الشعر في اللغة العربية الفصحى ، بل جاوزهم إلى جماعة من القصاص الشعبيين الذين تحدثوا إلى الناس في صور مختلفة واشكال متباينة ، بما كان لآبائهم من مجد موثل وبما أصاب آباءهم من محن مظلمة وفتن مدلهمة عرفوا كيف يثبتون لها ويصبرون عليها ، ويخرجون منها كراماً ظافرين . ولا خير في

حياة القدماء اذا لم تلهم المحدثين ولم توح اليهم رائع البيان شعراً ونثراً . وليس القدماء خالدين حقاً إذا لم يكن التماسهم الا عند انفسهم ، ولا تعرف انباؤهم الا فيما تركوا من الدواوين والاشعار . انما يحيا القدماء ويخلدون اذا امتلأت بصورهم واعمالهم قلوب الاجيال مهما يبعد بها الزمن ، وكانوا حديثا للناس اذا لقي بعضهم بعضاً وكنوزاً يستوحيها الكتاب والشعراء لاحياء ما يعالجون من الوان الشعر وفنون الكلام .

إلى هذا النحو من احياء الأدب القديم ، ومن احياء ذكر العرب الاولين ، قصدت حين امليت فصول هذا الكتاب . ولست اريد ان اخدع القراء عن نفسي ولا عن هذا الكتاب ، فاني لم افكر فيه تفكيراً ، ولا قدرته تقديراً ، ولا تعمدت تأليفه وتصنيفه كما يتعمد المؤلفون ، وانما دفعت إلى ذلك دفعاً ، واكرهت عليه اكراهاً ، ورأيتني اقرأ السيرة فتمتلىء بها نفسي ويفيض بها قلبي وينطلق بها لساني واذا انا املي هذه الفصول وفصولا اخرى ارجو ان تنشر بعد حين .

فليس في هذا الكتاب اذاً تكلف ولا تصنع ، ولا محاولة للاجادة ولا اجتناب للتقصير وانما هو صورة يسيرة طبيعية صادقة لبعض ما اجد من الشعور حين اقرأ هذه الكتب التي لا اعدل بها كتباً اخرى ، مهما تكن . والتي لا أمل قراءتها والأنس اليها . والتي لا ينقضي حبي لها واعجابي بها ، وحرصي على ان يقرأها الناس ، ولكن الناس مع الاسف لا يقرأونها لانهم لا يريدون او لانهم لا يستطيعون . فاذا استطاع هذا الكتاب ان يحبب إلى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة ، وكتب الأدب العربي القديم عامة والتماس المتاع الفني في صحفها الخصبة فانا سعيد حقاً ، موفق حقاً لأحب الاشياء إلي وآثرها عندي .

واذا استطاع هذا الكتاب ان يلقي في نفوس الشباب حب الحياة العربية الأولى ويلفتهم إلى ان في سذاجتها ويسرها جمالا ليس اقل روعة ولا نفاذاً

إلى القلوب من هذا الجمال الذي يجدونه في الحياة الحديثة المعقدة ، فانا سعيد موفق لبعض ما اريد. واذا استطاع هذا الكتاب ان يدفع الشباب إلى استغلال الحياة العربية الأولى واتخاذها موضوعاً قيماً خصباً لا للانتاج العلمي في التاريخ والأدب الوصفي وحدهما بل كذلك للانتاج في الأدب الانشائي الخالص فانا سعيد موفق لبعض ما أريد .

ثم اذا استطاع هذا الكتاب ان يلقي في نفوس الشباب ان القديم لا ينبغي ان يهجر لانه قديم ، وان الجديد لا ينبغي له ان يطلب لانه جديد ، وانما يهجر القديم اذا برىء من النفع وخلا من الفائدة ، فان كان نافعاً مفيداً فليسوا اقل حاجة اليه منهم إلى الجديد فانا سعيد موفق لبعض ما اريد .

وانا اعلم ان قوماً سيضيقون بهذا الكتاب لانهم محدثون يكبرون العقل ، ولا يثقون الا به ، ولا يطمئنون الا اليه . وهم لذلك يضيقون بكثير من الاخبار والاحاديث التي لا يسيغها العقل ولا يرضاها . وهم يشكون ويلحون في الشكوى حين يرون كلف الشعب بهذه الاخبار ، وجده في طلبها ، وحرصه على قراءتها والاستماع لها وهم يجاهدون في صرف الشعب عن هذه الاخبار واستنقاذه من سلطانها الخطر المفسد للعقول . هؤلاء سيضيقون بهذا الكتاب بعض الشيء لانهم يقرأون فيه طائفة من هذه الاخبار والاحاديث التي نصبوا انفسهم لحربها ومحوها من نفوس الناس . واحب ان يعلم هؤلاء ان العقل ليس كل شيء . وان للناس ملكات اخرى ليست اقل حاجة إلى الغذاء والرضا من العقل ، وان هذه الاخبار والاحاديث اذا لم يطمئن اليها العقل ، ولم يرضها المنطق ، ولم تستقم لها اساليب التفكير العلمي فان في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة واستراحتهم اليها من جهد الحياة وعنائها ما يحبب اليهم هذه الاخبار ويرغبهم فيها ، ويدفعهم إلى ان يلتمسوا عندها الترفيه على النفس حين تشق عليهم الحياة . وفرق عظيم بين من يتحدث بهذه الاخبار إلى العقل على انها حقائق يقرها العلم وتستقيم بها مناهج البحث ومن يقدمها إلى القلب والشعور على انها مثيرة

لعواطف الخير صارفة عن بواعث الشر ، معينة على انفاق الوقت واحتمال اثقال الحياة وتكاليف العيش . واحب ان يعلم الناس ايضاً اني وسعت على نفسي في القصص ، ومنحتها من الحرية في رواية الاخبار واختراع الحديث ما لم اجد به بأساً ، الا حين تتصل الاحاديث والاخبار بشخص النبي ، او بنحو من انحاء الدين ، فاني لم ابح لنفسي في ذلك حرية ولا سعة ، وانما التزمت ما التزمه المتقدمون من اصحاب السيرة والحديث ورجال الرواية وعلماء الدين .

ولن يتعب الذين يريدون ان يردوا فصول هذا الكتاب القديم في جوهره واصله الجديد في صورته وشكله إلى مصادره القديمة التي اخذ منها . فهذه المصادر قليلة جداً لا تكاد تتجاوز سيرة ابن هشام ، وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري . وليس في هذا الكتاب فصل او نبأ او حديث الا وهو يدور حول خبر من الاخبار ورد في كتاب من هذه الكتب .

فاذا اتصل الخبر بشخص النبي فاني ارده إلى مصدره ليستطيع من شاء ان يرجع اليه لا احتمل في ذلك تبعة خاصة ، لأني لا اذهب فيه مذهباً خالصاً ، الا ان يكون تبسيطاً في الشرح والتفسير واستنباطاً للعبرة والوصول إلى قلوب الناس .

فلييسر الله سبيل هذا الكتاب إلى النفوس ، وليحسن الله موقعه في القلوب .

(طه حسين)

وبعد فإني نقلت المقدمة جميعاً لم اسقط منها كلمة ومن شاء ان يعرف لماذا فليعد قراءتها مرة اخرى أو ان شاء فاني على استعداد ان اعيد له نقلها مرة ثانية وثالثة وعشرين وألفاً .

واقسم وما انا إلى القسم بمضطر لقد حاولت ان اكتفي بالنقل عند

نهاية كل فقرة فاذا الفقرة التي تليها تجذبني اليها جذباً فانقلها وما زالت المقدمة بي وما زلت بها حتى نقلتها جميعاً بل لقد طاب لي ان اضع اسمه في نهايتها فانه هو هذا طه حسين .

ترى هل سيتاح للمتشدقين بالآداب الغربية ان يقرأوا هذه المقدمة التي كتبها العميد الذي اصر على ان يتعلم طلبته الآداب اللاتينية والذي فجر الثورة الأدبية وثورة الحرية الفكرية في العالم العربي والاسلامي والذي نال الدكتوراه من فرنسا والذي تزوج فرنسية ، ترى أيتاح لواحد من هؤلاء ان يقرأ هذه المقدمة ليدرك ان كاتباً ما لن يكون كاتباً اذا لم يستظل بادب بلاده وقومه اولا ثم لينظر بعد ذلك إلى ما شاء من آداب اخرى . انا لن امضي في اثر سطور المقدمة لاتدارسها كلمة كلمة فهي من القوة والوضوح والاشراق بحيث يفسدها الشرح وينقصها التعليق ولهذا نقلتها كلها .

وانما اريد ان اخلص منها أن رواية على هامش السيرة رواية ولعلها تكون بداية الاسطورة في الأدب العربي. وكم ارجو ألا تكون نهاية الاسطورة ايضاً .

وبعد فقد ذكرت لك في اكثر من مكان من هذا الكتاب انني لا اكتب دراسة عن طه حسين. فهذه خطة لا اطيق السير فيها . وقد تكلمت في هذه الصفحات الاخيرة عن الرواية عند طه حسين في لمحات خاطفة سريعة فانا لست ناقداً وانما انا قارىء اروي لك ما انطبع في نفسي . ولا شك ان هناك جوانب لم المسها مثل ترجماته للمسرحيات الغربية ومقالاته السياسية التي كان يهاجم بها الحكام وهم ممسكون بالصولجان وهناك قبل كل هذا وبعد كل هذا طه حسين استاذ الجامعة الذي تخرج الأدب العربي على يديه . تلك بعض جوانب لم اقترب منها لانني اخشى المغبة ان ابدأ الخطو ثم يقصر بي القلم عن المسير .

ماذا قدمت اليك اذن في هذا الكتاب؟ اما انا فاقسم لك في غير تواضع

اني احس اني ما قدمت شيئاً فهل تراك تقبله على انه حديث احببت ان اسوقه اليك راجياً ان تقبله في تفضل منك وتسامح فان فعلت فاني لك شاكر والا فدعني اتوجه بحديثي هذا إلى استاذي العظيم الخالد طه حسين فقد كان يقبل منا كل حديث في سماحة استاذ وحنان أب .

تقبلك الله ايها العميد في اكرم رحاب وسلام عليك في الخالدين . فان عزانا فيك ما تركت من آثار ضخام فلا عزاء لنا فيك نحن حلقة ندوتك ، وابناء كلمتك ، ونبت ادبك. لست انساك قبل وفاتك بعام وكنا في مطالع الصيف وتوقعت ان يكون موعد سفرك إلى اوروبا قد اقترب فكلمت سليم سكرتيرك فاذا هو يخبرني انك مسافر في اليوم نفسه بعد ساعات قلائل واذا هو يخبرني انك تريد ان تراني فوضعت سماعة التليفون لاكون عندك . وصعدت إلى حجرة نومك ولم اعجب فقد كنت القاك في اغلب زيارات السنتين الاخيرتين بحجرة نومك .. وكنت اجدك جالساً في فراشك او في كرسيك بجانب الفراش اما في ذلك اليوم فقد كنت مستلقياً في فراشك استلقاء كاملا وحين دخلت اليك احببت ان تخرج يدك من تحت الغطاء الحريري لتصافحني ووجدتك تبذل جهداً كبيراً لتخرج يدك هذه فسارعت ابقي يدك حيث هي واعيد من الغطاء ما اقلقته المحاولة واذا انت تقول في صوت واهن ضعيف مرتعش « انا تعبان قوي يا ثروت انا تعبان قوي » وعجبت كيف ستسافر في يومك هذا نفسه ... لبثت قليلا وانصرفت وانا اخشى عليك مشقة السفر . وعدت في بوادر الشتاء وقد تحسنت صحتك .

واستدار العام وتهيأت للسفر وذهبت لزيارتك فوجدتك قد اعددت لي الجزء الثالث من كتابك الايام وعليه اهداء سأتركه لأولادي ثروةهي اعظم ثروتهم وانصرفت وانا مطمئن عليك فقد كنت جالساً وكنت تروي من الاحاديث ما ينفذ في اغوار الزمن الماضي اربعين عاماً او خمسين . وفي يوم من اوائل شتائنا هذا احسست حنيناً اليك فطلبت بيتك لاعرف ان كنت عدت فاذا سليم يخبرني انك كنت تتحدث عني في هذه اللحظة

وانك تريد ان ترسل إلي برقية تعزيني في وفاة عمي عزيز باشا وكلمتني يا رحمك الله قلت لك انني لم اعلم بمجيء معاليك واني انما اطلب لاعلم فاذا انت تخبرني انك وصلت في يومك هذا .. اترى خفقة من روحك السامية هي التي الهمتني ان اطلباك في يوم وصولك ليكون آخر حديث بيننا هنا في هذه الدنيا ... لعلها كانت كذلك بل انها لكذلك . وعزيتني — من يعزيني فيك — وانتهت المكالمة على وعد باللقاء قريب ثم جاء النبأ وسارعت إلى بيتك ويخبرني سليم انك كنت في المصيف باحسن حال وانك قرأت كتابي الاخير عدة مرات وكان كلما قال لك قرأناه قلت معلهش اريد ان اقرأه مرة اخرى ومضيت .. لقد اكرمتني حياً وميتاً يا رحمك الله ولو كان غيرك من مات لدعوت الله ان يعوضنا عنك ولكن ما إلى تحقيق هذه الدعوة من سبيل .

وما هو ميت ولكنه
بشاشة دهر محاها الزمن

ومعنى خلا القول من لفظه
وحلم تطاير عنه الوسن

ولو انصف الصحب يوم الودا
ع دفنت كاسحق لما دفن

فغيبت في المسك لا في الترا
ب وادرجت في الورد لا في الكفن

سلام عليك سلام الربا
اذا نفحت والغوادي الهتن

سلام على جيرة بالاما
م ورهط بصحرائه مرتهن

سلام عـــلى حفـــر كـالقبـــــا
ب ، واخـرى كنـدرسـات الـدمن
وجمـــــع تـآلـف بعـــد الخـــلا
ف ، وصـافي وصـوفي بعد الضغـن
سـلام عـــلى كـــل طـود هنـــا
ك ، له حجـر في بنـاء الـوطـــن
استـاذي العظيـم سـلاما

ثروت اباظه

القاهرة في ٣٠-١٢-١٩٧٣



طبع على مطابع

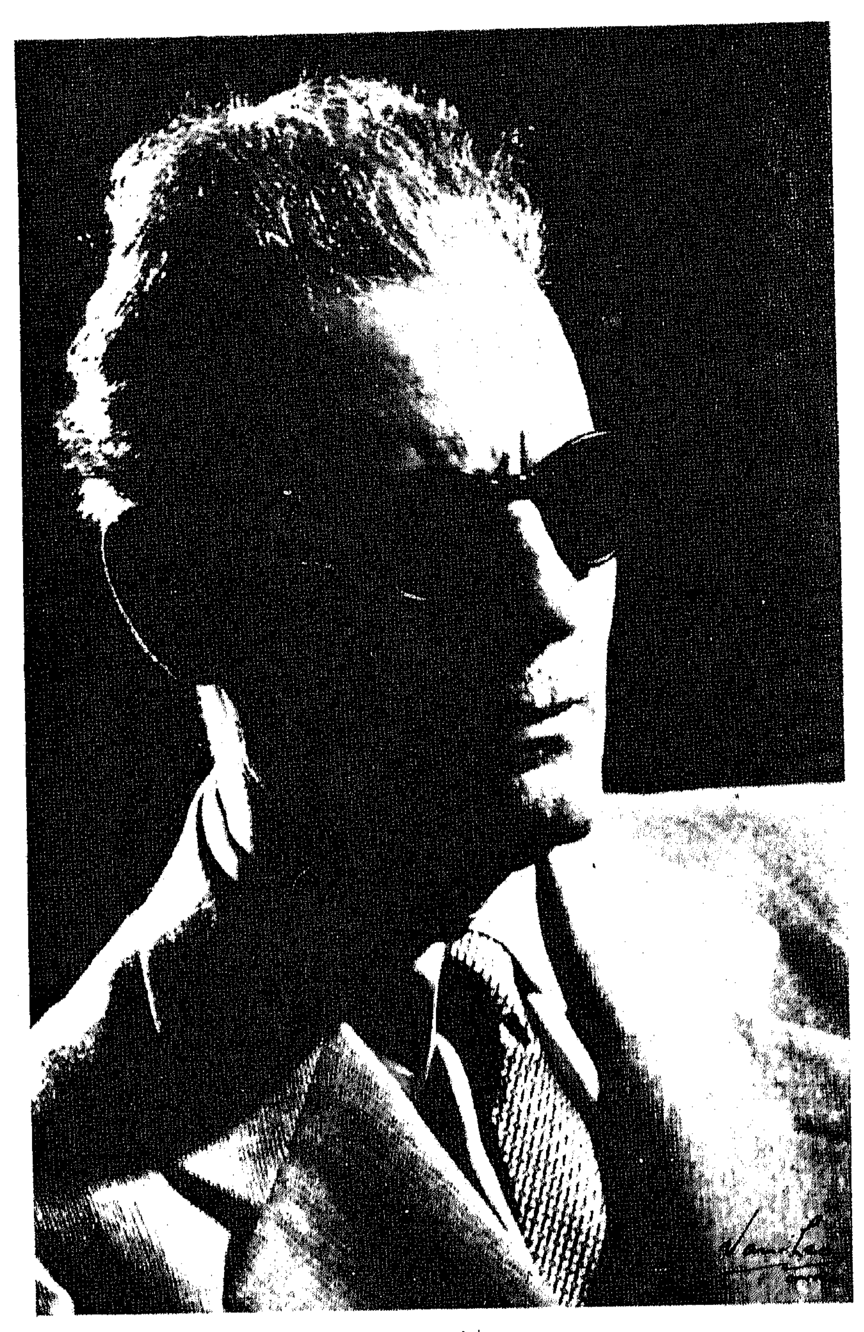
دار الكتاب ـ اللبناني

بيروت ـ لبنان









من اشهر صوره

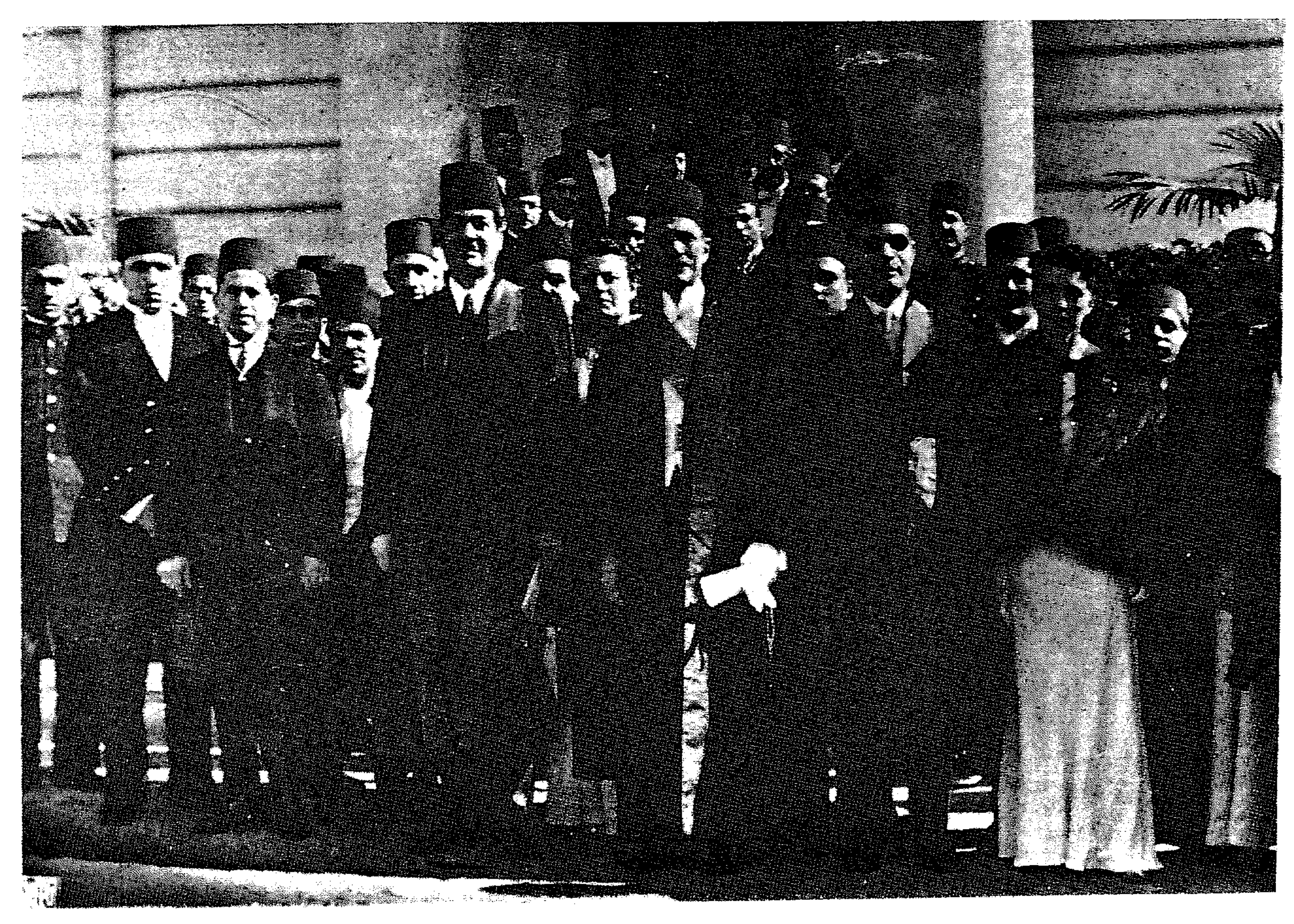


العميد وابنه وزوجة ابنه في حفلة لذكرى الشاعر احمد شوقي ـ بالقاهرة ١٩٥٧



طه حسين مرتدياً رداء جامعة الاسكندرية في حفلة افتتاح الجامعة، الاسكندرية عام ١٩٤٣

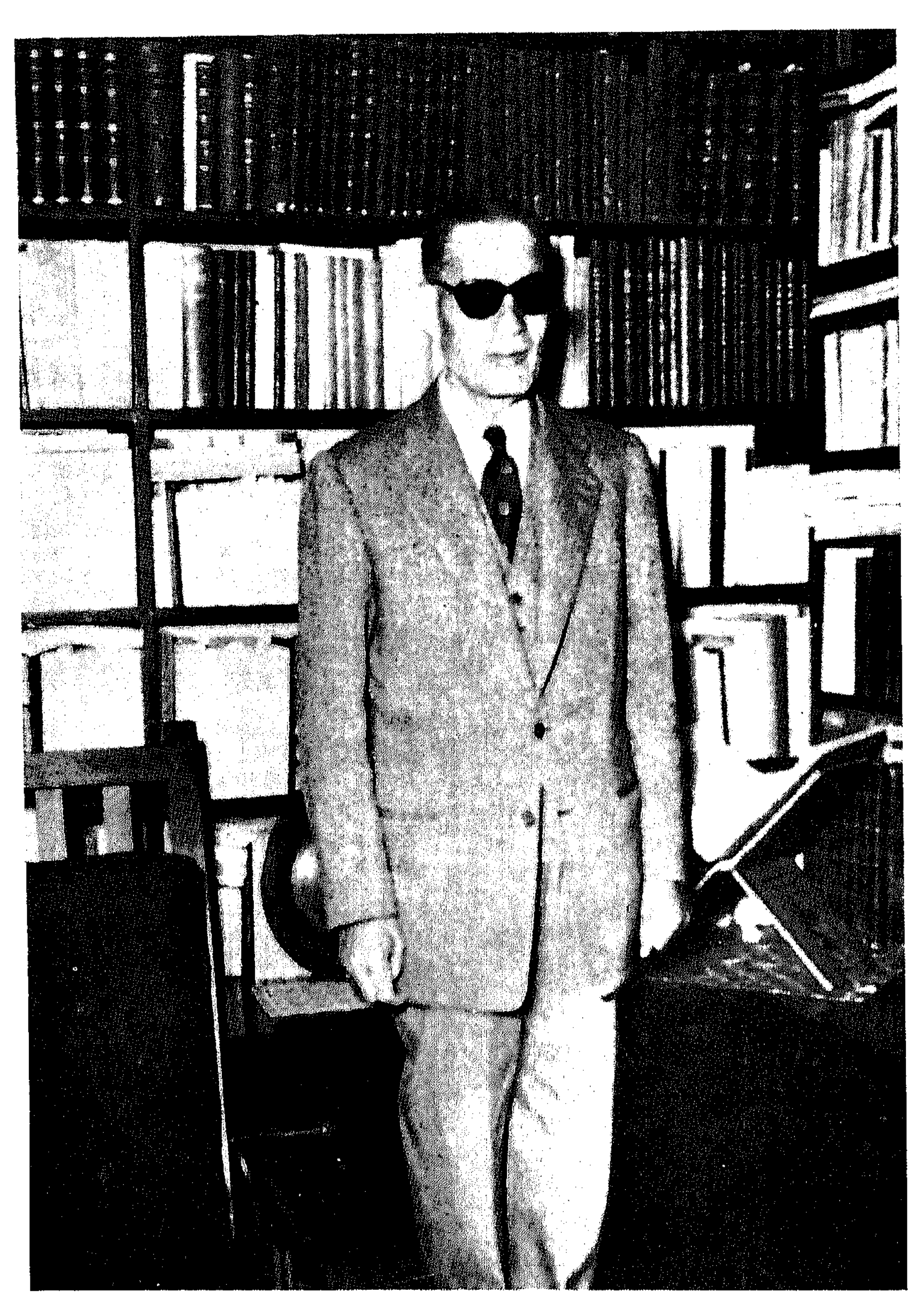




الجامعيون في افتتاح البرلمان



الدكتور طه حسين يحتضن حفيده حسن الزيات وفي الصورة مدامة طه حسين ومؤنس طه حسين والدكتور محمد حسن الزيات .



حارس الفكر



في رحاب الفاتيكان ١٩٥٠



في بيروت، لبنان « اليونسكو » (نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٤٨)



يحتضن حفيده « حسن الزيات » ولد كريمته أمينة في ناد رياض بالاسكندرية ١٩٥٠



يملي على كريمته امينة في « بيت مري » بلبنان ١٩٤٣



مع حرمه وحفيدته أمينة مؤنس طه حسين في ميرانو بايطاليا (اغسطس ١٩٧١)





في مدريد ١٩٥٠



في زيارة لمدرسة ثانوية ببريطانيا عام ١٩٥٠



في ايطاليا (اغسطس ١٩٥١)



memoires

TAHA HUSSEIN



DAR AL-KITAB ALLUBNANI
BEYROUTH